محمد عبد الرحمن الشامخ

الكاتب الحي

دار العلوم
للطباعة والنشر
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

بسم الله الرحمن الرحيم

مدونة

محمد عبدالرحمن الشامخ

كاتب الحيّ

مدونة

محمد عبدالرحمن الشامخ

محمد عبد الرحمن الشامخ

كاتب الحي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار العلوم
للطباعة والنشر
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

مدونة

محمد عبد الرحمن الشامخ

مقدمة

هذه أوراق تفاوت زمن تساقطها، ولكن القلم ما زال حديث عهد بها. وقد أردتُ أن ألّم شتاتها، وأجمع ما تفرّق منها، فهي متقاربة في مضمونها، واحدة في غرضها.

ولقد أرادت هذه المقالات أن تكون نبرة من نبرات ذلك الصوت الذي يريد للغة العربية أن تجد في جزيرتها موئلاً يعصمها من الأمية والعجمة، ومكاناً لا تعصف به رياح اللغات الغالبة. كما حرصت هذه الكلمات على أن تكون سطراً في صفحة تلك الدعوة التي تريد لجزيرة العرب أن تصبح أرضاً طيبة تغذو الفكر وتؤصّله، وتنبذ الترف المادي، والوسن الذهني.

الرياض في ٣/ ٧/ ١٤٠٢ هـ
٢٦/ ٤/ ١٩٨٢ م

محمد عبد الرحمن الشامخ

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مقـــالات

مدونة

محمد عبدالرحمن الشامخ

مسرحية عقارية
تبحث عن مؤلف

حين عجز الكاتب المسرحي الشهير «لويجي بيراندلو» عن كتابة مسرحيته المعروفة «ست شخصيات تبحث عن مؤلف»، جعل هذه الشخصيات نفسها تقف فوق خشبة مسرح من المسارح لا لتمثل، ولكن لتروي قصتها أمام المخرج والممثلين. وقد تذكرت هذه الحقيقة حين بدأت في تأليف مسرحية لم أستطع أن أخرج شخصياتها إلى النور، ولكني صرت أتميز من الغيظ وأنا أخط سطراً، وأمزق صفحات. وإذ رأيت أني لم أكن ألقّن الشخصيات حواراً مسرحياً ينبض بالحياة، بل جعلتها تلقي خطباً طويلة فاترة، أدركت أن بضاعتي في كتابة المسرحيات كبضاعة طوائف الناثرين المتشاعرين في عالم الشعر.

وكما أن «بيراندلو» لم يرض لشخصياته أن تظل في دنيا العدم، بل جعلها تشق طريقها نحو المسرح بحثاً عن

(*) كتبت عام ١٣٩٥ هـ حين كانت الحمى العقارية على أشدها.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المؤلف، فقد بدا لي ألاّ أئِدَ شخصيات مسرحيتي، بل أجعلها تقف أمام القارىء علّها تفصح عن نفسها، أو تجد من يحسن تأليفها.

وبطل المسرحية هو الشاب حمدان الذي نشأ نشأة فقيرة متواضعة، ولكن طموحه وتفوّقه في الدراسة قد دفعاه إلى أن يحصل على شهادة الدكتوراة في علم اجتماع المستقبل من إحدى الجامعات العالمية المشهورة. وعاد حمدان إلى وطنه وهو يتلهّف حماسة وشوقاً إلى أن يسهم في البناء العلمي لبلده، وأن يوجد لنفسه وزملائه بيئة علمية جامعية تشبه تلك البيئات العلمية التي شهدها في غربته.

وانضم حمدان إلى هيئة التدريس في إحدى الكليات الجامعية ببلده، حيث شهدت أيامه الأولى نشاطاً متوقّداً، وتفاؤلاً باسمًا، فصار لا يفارق المكتبة إلا ليلقي محاضرة، أو يقدم مشروعاً علمياً إلى رؤساء كليته. ومرت عليه السنوات وهو معتكف في المكتبة يقرأ المراجع وينشر الأبحاث، ولكن هذا الاعتكاف ما لبث أن جعل الناس من حوله يعدّونه غريباً عنهم، منفصمًا عن حياتهم، فقد نظروا إليه نظرة رثاء وإشفاق حين لم يجدوا اسمه بين تلك الأسماء الاجتماعية اللامعة، واعتبروه مثالاً للأستاذ الضعيف الخامل الذي لا يحسن الصعود إلى الدرجات العلا.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وقد نبزه المحيطون به بالألقاب، وأكثروا من التندّر به، فاتهموه بالدروشة، ووصفوه بالتعقيد النفسي، والشذوذ الاجتماعي. ولم يكن هذا ليفتّ في عضده لولا أنه شعر بعد فترة من الزمن بأن حياته الاجتماعية مهددة بالانفصام، فلقد ازورّ عنه الأصدقاء حين سمعوا ما أشيع عنه من تدروش وتعقيد، وتجافى عنه الأقرباء حين رأوا أن خموله قد قعد به في غرف التدريس، فلم يحصل خلال سنوات عمله على منصب إداري ذي جاه اجتماعي يرفع من اسمهم، ويكون سبباً في رعاية شؤونهم.

أما زوجته التي أسكنها هي وصغارها في بيت طيني قديم، فما كفّت عن لومه على ما هم فيه من معيشة ضنك، وما يلقونه منه من إهمال وشرود بال، وصارت تقارنه بابن عمه التاجر العقاري الذي لم يكمل الدراسة الابتدائية، ولكنه جعل أسرته تسكن أحسن البيوت، وتتمتع بأفخر السيارات.

وقد ضاقت على حمدان الأرض بما رحبت حين أدرك أن اعتكافه في المكتبة، وانشغاله بأبحاثه قد جعلاه يبدو للمجتمع غريب الأطوار، غير بصير بشؤون الحياة.

ولبث حمدان فترة من الزمن وهو في حيرة من أمره، فقد خمدت في نفسه جذوة الحماس العلمي، وصار في شك

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

من تلك القيَم الجامعية التي نذر نفسه لخدمتها. وفي يوم من الأيام زار ابن عمه ورفيق صباه التاجر العقاري، وقد لاحظ ابن العم ما يبدو على حمدان من وجوم وانكسار، فعرض عليه أن يصحبه في نزهة مسائية خلوية علّها تسري عن نفسه، وتعيد له شيئاً من البشر والبهجة. وفي طريقهما إلى الصحراء، مرّا بمكتب عقاري حيث مكثا قليلاً لتناول الشاي. وأثناء ذلك عرض صاحب المكتب على ابن عم حمدان الإسهام في شراء أرض خلوية، وقد راقت الفكرة لابن العم، فطلب من صاحب المكتب العقاري أن يسجّل عدداً من الأسهم باسمه وعدداً آخر باسم ابن عمه الدكتور حمدان. ودُهش حمدان حين رأى ابن عمه يقحمه في أمر لا شأن له به. واحتجّ على ابن عمه، وأخذ يذكّره بأنه لا يملك ثمن سهم واحد من هذه الأسهم التي سجّلها باسمه، ولكن ابن عمه أسكته وقال له: إن من حقك أن تتكلم إذا قبعت في ركن من أركان مكتبتك، أما هنا فإن عليك أن تصمت لأنك لا تفهم أبجديات هذه اللعبة الجديدة!

ومرّت على حمدان أشهر عدة، وفي أحد الأيام طرق ابن عمه بابه وأعطاه رزمة من النقود بلغت عشرين ألف ريال، وقد أخبره بأنها ربح تلك الأسهم الوهمية التي سجّلها باسمه في تلك الأمسية! وحاول حمدان أن يمتنع عن أخذها، ولكن إحساسه بالضعف والحيرة أمام ابن عمه الناجح في

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الحياة جعله يقبلها. وتتالت رعاية معلمه الجديد له، وتعددت زيارتهما المسائية للمكاتب العقارية حتى حذق حمدان أسرار المهنة العقارية، وصار منافساً لابن عمه في الذكاء الاجتماعي، واتّساع الثروة.

وتغير كل شيء في حياة الدكتور حمدان، فقد برىء مما كان قد أصيب به من مرض الكآبة الجامعي، وصَفَت له الحياة العائلية حين أنزل أسرته داراً فاخرة، وأمدّ زوجته بما تستطيع أن تنافس به الصديقات. أما الأقرباء الذين كانوا قد تجافوا عنه، والأصدقاء الذين ازورّوا عنه حين كان أستاذاً، فقد عادوا الآن إليه حيث كبرَ في أعينهم ما حققه من نجاح تجاري، وقدّروا ما رأوه من مهارته في شؤون الحياة.

وانصرف حمدان إلى هذه الحياة العقارية الجديدة انصرافاً شغله عن محاضراته، وأنساه مكتبته. ولاحظ زميله الدكتور عثمان ما طرأ على حياته من تغيرّ، وما أصيب به عمله الجامعي من إهمال، فبحث عنه طويلاً، ولكنه لم يظفر إلا برقم هاتف قيل له إنه رقم مكتب الدكتور حمدان. وحين تحدث عثمان مع حمدان وسأله عن أسباب غيابه، زعم بأنه مشغول بإعداد بحث ميداني عن أثر ازدهار الحركة العقارية على السلوك الاجتماعي، وقال بأنه قد أنشأ مكتباً يمدّه بالإحصاءات الاجتماعية، ويزوّده بالمواد العلمية الأولية!

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ووعده بأنه سيعود عما قريب إلى إلقاء محاضراته، ذلك لأن بحثه قد كاد يبلغ مرحلته النهائية.

وعندما مرّت الشهور دون أن يفي حمدان بوعده، أراد عثمان أن يعرف حقيقة الأمر، فاتجّه في أمسية من الأمسيات إلى مكتب الدكتور حمدان للبحث الاجتماعي، ولكنه وجد نفسه أمام دكان يعلوه لوح كبير زيّن بالمصابيح الكهربائية الملونة وكُتب عليه: «المكتب الجامعي للاستشارات العقارية»! ودلف عثمان إلى المكتب وسأل عن الدكتور حمدان، فأُخبر بأنه مشغول بالحراج. وسار عثمان نحو الفيافي والقفار حيث وجد في بطن واد من الوديان جمهرة من الناس علا منهم الضجيج، وظلّلتهم سحب الغبار، وأخذ يتفرّس في الوجوه، وشدّ ما راعه أن رأى وسط الجمع دلالاً ينادي بأعلى صوته وهو يقفز كالبهلوان تارة نحو اليمين وأخرى إلى الشمال وثالثة نحو الأمام. وكان رث الهيئة، قد حفيت منه القدمان، وغطّى رأسه بغترة طيّرها الهواء فلم يجد بداً من أن يعض عليها بالأسنان!

وسأل الدكتور عثمان نفسه متعجباً: أيمكن أن ينقلب ذلك الباحث الوديع الكئيب إلى دلّال مهرّج يتفوه بسوقي الكلمات وبذيء التعبير؟ ومكث غير بعيد ليرقب هذا المشهد العقاري العجيب، حتى إذا غابت الشمس، وبدأ الجمع في العودة إلى المدينة، أمسك بيد الدلّال حمدان وانتحى به جانباً

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

حيث أخذ يؤنبه على ما صنع بنفسه، إذ هجر بيتاً من بيوت العلم، واستبدله بدكان من دكاكين العقار! وحاول حمدان أن يبرىء نفسه، وأن يبينّ لزميله بأنه لم يتّجه هذه الوجهة إلا بعد أن رأى مجتمعه يتنكر للقيَم العلمية، ويعلي من شأن القيَم المادية العقارية حيث وقر في ذهنه أن المواطنين قد آثروا عيش الترف المادي، وزهدوا بحياة العلم والفكر، وحينئذ لم يجد بداً من أن يجعل شعاره قول القائل:

وما أنا إلا من غزية إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد

ورد عليه الدكتور عثمان بأن تقوقع المثقفين من أمثال حمدان وسلبيتهم قد جعلا المجتمع يزهد بهم، ويصاب بخيبة الأمل نحوهم. ولكن هذا المجتمع لن يلبث أن يدرك بأن ما آلت إليه حاله من انتصار للقيَم المادية، وتباه بالمناصب الإدارية سيضعف العنصر العلمي بين أبنائه، ويقضي على الجانب الروحي بين أفراده، وحينئذ سوف ينظر إلى جوهر الأمور دون عرضها، وسيقدّر الناس بحسب قدراتهم الذهنية، ومهارتهم العلمية والتقنية.

وأوضح الدكتور عثمان لحمدان أنه قد حدث خلال رِدّته العقارية تحوّل في النزعة الإدارية التي غلبت على البيئة الجامعية حيناً من الزمن، وأن هذه النزعة قد كادت تتلاشى

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أمام انتصار القيم العلمية والمثل الفكرية، فقد أصبح الآن لزاماً على كل أستاذ من الأساتذة في كليتهم أن يعتكف في كل عام مرة بمكتبته أو معمله، وألّا يخرج من معتكفه إلا بعد أن يكتب بحثاً، أو يقوم بتجربة تطبيقية رائدة.

وإذ أثار هذا الحديث في نفس حمدان حنيناً إلى الأيام الأولى، وشوقاً إلى الجو الجامعي، فقد طلب من زميله أن يمهله حتى يتدبر أمره. ولم يمض زمن طويل حتى عاد الدكتور حمدان إلى ركنه في معمل التجارب الاجتماعية بالكلية، فقد أقفل دكانه العقاري بعد أن حطّم مصابيحه الكهربائية الملوّنة ورمى بسجلاته التجارية بين يدي ابن عمه الذي أتخمه بالثراء، ولكنه جعله يصاب بالفقر الروحي والأمية الفكرية.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

شجرة العوسج

وعندما حانت عودة المهاجر إلى صحرائه، أراد أن يحمل من مهجره شيئاً مما تنبته أرض الخصب والنماء. فاختار فسيلة من تلك الشجرة التي تفوح بالعطر دائمًا، وتؤتي الثمار في كل فصل من فصول العام.

وحين أناخ راحلته في واد من الوديان، أخذ الفسيلة وغرسها في منابت العشب والكلأ، حيث توجد شجيرات الطلح والغضى والعوسج.

وعكف على الفسيلة يسقيها، ولكنها لم تفح بالعطر ولم تحمل الثمر. وصار الطلح دوحاً، والغضى أجماً، ولكن الفسيلة ظلت ذابلة مغبرة.

وأدرك المهاجر أن شجيرة أرض الخصب والنماء لن تقوى على جفاف الصحراء وجدبها، فقوّض أطناب خيمته، وراح يجوب الفيافي والقفار.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وحينما دعاه الشوق إلى رؤية شجيرته لم يجد عطراً ولا ثمراً، ولكنه وجدها وقد صيّرتها البراري عوسجة غبراء تدمي أيدي الحطابين وتجرح مشافر الأبل.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الكهل والزمن

ومضت سنوات العمر مهرولة، حتى إذا أفضت به إلى أبواب الكهولة، وقف وقفة إنابه يسائل نفسه عن الزمن فيم قضاه، وعن العمر فيم أفناه. فلما ضاق به التساؤل أخذ يتحسر على أعوامه الخالية ويردد مع الشاعر قوله:

أخمسون عاماً قد طويت كأنها
منام توشيه الرؤى وكذابها

وقالوا تجاريب وقالوا تمرس
وقد عاد خِلْواً بعد كَظٍّ وِطَابُها

أحكك جنبي بالليالي فلا أرى
لها أثراً مهما تخمَّط نابها

ونحسب أن العمر إن طال متعة
ويا طالما غرَّ النفوس حسابها

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وأُصيب الموظف بالوجوم حين أدرك أن السنين قد أُنفقت في اللهو الحسي، وتصرمت في سبيل بناء مجد وظيفي وهمي. فقد كان دأبه أن يصرع هذا، ويجندل ذاك، وكان شأنه أن يسلب حق هؤلاء، ويظلم أولئك.

وفتَّش في تراب الوطن عله يجد بذرة صالحة كان قد نثرها، أو فسيلة طيبة كان قد غرسها، ولكنه لم يجد إلّا الرُّشا التي قضى عمره في بذرها، ولم يعثر إلّا على شجرة خبيثة كان قد عكف على سقيها ورعايتها. ولم ير شيئاً من شجيرات النزاهة والأمانة لأنه كان قد اجتثها، ولم يتنسم عبيراً من زهرات الضمير لأنه كان قد أذبلها.

وندم على ما فرط في جنب الوطن حيث رضي لنفسه أن يكون معولاً يهدم بناءه الخلقي، وأداة تقوض كيانه الروحي والمعنوي.

وزاد من حسرته أن رأى أبناءه يأكلون من ثمر تلك الشجرة الخبيثة التي غرسها، ويتمرغون في حمأ الرذيلة التي نشرها.

وتمنى لو بدأ العمر من جديد لكي يبر بوطنه، ويزرع في تربه شجرة مباركة تغذو أطفاله بثمرها الطيب، وتظلهم بفيئها الوارف.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ولكن ساعة الزمن كانت تدق هازئة بأماني المحال، وشجرة الدنس كانت تساقط على أبنائه ثمر الخبث، وجنى الزقوم.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

عاصفة الأشباح

«مهداة إلى هواة الأدب السريالي»[1]

اختنقت شمس الأصيل وأصيبت بالشحوب الذي أخذ يعصرها كما تعصر العصارة الليمونة.. أظلم الأفق.. ماتت الشمس.. أصبح الجو من حولي مأتماً.. الرياح تعوي، والأشباح المثلوجة تتراقص في حلبة الأحزان.

في أعماقي صراخ.. القفز يريد لكنه يرتكس ثانية إلى الأعماق.. يحدث دوياً تتجاوب له الأضلاع.. أضلاعي ترتجف من لسع الخوف، فرائصي تنتفض من رؤية أشباح الصحراء اللازوردية.. وذرات مطر تساقطت على أرض الصحراء المخنوقة.. سكن وجيب عروقي، وأحست بالخدر أصابع قدمي.. هدأ عويل الرياح.. فرَّت إلى كهوفها

(١) عزيزي القاريء، هذه مقالة قصيرة عَمَّيتها تعمية الرمزيين، وهذيت فيها هذيان السرياليين، فإن راقتك فلا تحسن الظن بذوقك الأدبي، وإن أثارت سخطك وهممت بتمزيقها فأرجو أن تقرأ ما يتلوها من تعقيب.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

العنكبوتية تلك الأشباح، تركت وراءها صدى قهقهات حمراء نارية، خلفت في مكانها آثار أقدام ضخمة تشبه أقدام الجمال الوحشية.

لذت بخيمتي السوداء، ولكن سرعان ما انقطع الرذاذ.. عادت الرياح المبحوحة إلى زعزعة أقدام خيمتي. مسكينة خيمتي! إنها تتأوه.. تحتضر.. اجتثت الريح العاتية أصبعاً من أصابعها.. قضمت بأنيابها وتداً من أوتادها.. شلت عمودها الفقري.. أصبحت خرقة سوداء تلعب بها يد الريح.. صارت علم كآبة داكن ترفعه الرياح فوق الأرض المطيرة، وتثبته وسط حلبة الرقص الأفعوانية.

عادت الأشباح من كهوفها العنكبوتية.. أقبلت تتقافز في الهواء بطريقة بهلوانية، لكنني في هذه المرة لم أنظر إليها بعين رامشة.. لم أقف منها موقفاً راجفاً.. وقفت أنظر إلى الحلبة يرفرف عليها فتات خيمتي الذي أكلته الرياح، وقفت أنظر الريح تقضمه بأسنانها المصرصرة كلما أصابها الهياج الأحمر الذي يحدثه رقص الأشباح.. وقفت أتسلى برقص الأشباح ذات الأجنحة البلورية اللازوردية.. لم تخفني صرخاتها الحامضة، لم يسقط قلبي في قاع محيط جسمي.. لم أشعر بالخوف الغازي يتسرب إلى بدني خلال مسامي.. لم أفعل شيئاً من ذلك، لقد صرت تمثالاً بلورياً منبهراً انتصب حول الحلبة الأرجوانية، ذلك لأن أصابع قدمي

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

تخدرتا، ذلك لأن ساقي تصلبتا، ذلك لأن هيكلي قد شل عندما شلت العاصفة عمود خيمتي، وعندما ذاقت أذناي عويل الريح المسعورة وهي تدعو الأشباح الكهفية إلى فتات خيمتي الذي صبغ بسواده أمعاء الريح، ومصارين الأشباح.. تلاشت خيمتي فلم تبق عاصفة الأشباح من آثارها إلّا تمثالاً بلورياً نصبه زخم الانبهار حول حلبة الرقص الأفعوانية!

□ تعقيب:

عزيزي القارىء، لقد لامني أحد الأصدقاء، واتهمني بأن أسلوبي في الكتابة أسلوب عتيق يحاكي القاضي الفاضل في سجعاته، ويقلد المنفلوطي في نظراته، فقلت له: وماذا أفعل كي أجعل أسلوبي أسلوباً عصرياً مقروءاً؟ فقال: عليك بأن تعمد إلى قراءة ما كتبه أدباء الشباب في بعض الجرائد والمجلات العربية من قصائد ومقالات عصرية رائجة، ثم تحاول محاكاتها والنسج على منوالها.

وإذ قبلت النصح، فقد أخذت ألتهم بشغف ما نشر في صحفنا المحلية من مقالات وقصائد دادية سريالية، وما خط فيها من أشكال تجريدية تكعيبية! ولما رأيتها قريبة الغور، مكررة المعنى، مرددة التعبير قلت في نفسي: لم لا أترك هؤلاء، وأتتلمذ على أساتذتهم في لبنان؟ وحين قرأت ما كتبه

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

هؤلاء الأساتذة أحسست بأني أقف أمام أدب ليس بشرقي ولا غربي، فقد نفرت منه طبيعة الشرق، ولم يستطع أن يتقمص روح الغرب.

ولما اشتد بي اليأس، وألحت علي الرغبة في التجديد، هداني الفكر إلى أوروبا حيث يوجد الأساتذة الأساتيذ، مبدعو النظريات، ومصدرو كل طريف جديد! وقد ألقيت في حي من أحيائهم عصا الترحال، ذلك لأني أيقنت أن بضاعتي القلمية ستروج عند قومي ما دامت فرنجية الملامح، غريبة السمات!

وحين بدأت في التخلص من إسار ذلك الأسلوب المنفلوطي العتيق.. وتشبثت بأدباء الأساليب العصرية اللاشعوريين، أخذ قلمي يتفنن في رسم الكلمات المقطعة، وتأليف الجمل غير المفيدة، وصرت أوشّي ذلك بنقط تتخلل هذه الكلمات والجمل. وما مقالة «عاصفة الأشباح» التي أنشرها هنا إلّا محاولة من هذه المحاولات التي اقتديت فيها بأئمة النظريات اللاواعية. فقد اهتديت بفيليب سوبو أحد زعماء المدرسة الدادية الأخت الكبرى للسريالية حين وصف طريقة إبداع الشعر الدادي فقال: «ضع الألفاظ في قبعة ثم أخرج منها ما يَعِنُّ لك».

وبما أني لا أملك قبعة بل ألبس طاقية قطن مخرمة فقد

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وضعت الألفاظ في هذه الطاقية ذات الثقوب التي تشبه أثقاب المنخل، وحين بدأت عملية الإبـداع الفني، وأخذت في إخراج ما عن لي من الكلمـات سقطت بعض الكلمـات الصغيرة كالحروف والأدوات من ثقوب الطاقية المنخليـة، ولم أكلف نفسي عناء التقاطها، فقد أبدلتها بما هو خير منها حين وشَّيت الأسطر بالنقط التي تخللت الجمل والكلمات.

أما ما يرى في مقالتي السريالية من غموض وإبهام وما يلمح فيها من إغراق في استخدام الاستعارة وعدم مراعاة لما يقتضيه التركيب اللغوي الصحيح، فإنما يعود ذلك إلى أني أخذت بقول إمام السريالية أندريه بريتون الذي دعا الأديب إلى أن يحرر عقله من سلطة المنطق والتفكير لكي يصبح في حالة نوم مغناطيسية، ثم يبدأ بعد ذلك في إنشاء سلسلة من الكلمات والجمل التلقائية العفوية التي تشبه ما يمر بخيال الحالم من صور.

وإذا ما بدا للقارىء أن مقالتي السرياليـة غير ذات معنى، أو أنها شبيهـة بهذيـان المهلوس، فـإنـه يحسن بـه ألا ينسى أنها عمل فني يهدف إلى ما هدف إليه أساتذتنا السـرياليـون من بحث عن الحقيقة الكـامنـة في منـطقـة اللاشعور. إن الزملاء من أدباء الشباب سيقدرون هذه المقالة حق قدرها حين يشاركون الكاتب تجربته السريالية فيقرأون ما كتب وهم في حالة نوم مغناطيسية تشبه نومته. وإن شاء

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

القارىء أن يظفر بمثل ما ظفروا به، فما عليه إلّا أن يتخلص من سلطة الفكر، ثم يغفو غفوة تنقله إلى عالم اللاوعي، وحينئذ سيدرك من أمر هذه المقالة ما لم يدركه، وسيرى من أسرارها الفنية ما عجزت العين المجردة الواعية عن أن تراه.

وبعد، فإذا كان الفرزدق الشاعر الكلاسيكي الواعي قد اشتكى من صعوبة إبداع الشعر، وقال بأن نزع ضرس أيسر عليه من أن ينظم بيت شعر، فإن من محاسن هذه الطريقة السريالية أن إنتاج المئات من الأبيات وتسويد العشرات من الصفحات أيسر على الشاعر والكاتب من شرب الماء. ولذلك فإن باستطاعة الأديب أو الكاتب الصحفي مثلاً أن يمد جريدة من الجرائد اليومية بما يملأ أعمدتها كل صباح، ما دام أن قلمه ليس سوى آلة تسجل ما يمر بخاطره من صور عفوية ويدور بخياله من أحلام كما يقول أندريه بريتون! ولا شك في أن الإنسانية في عصرها الآلي التقني محتاجة إلى نوع جديد من الأدباء ممن يربو إنتاج الواحد منهم على ما كان ينتجه العشرات من الأدباء في جيل الآباء!

وإذا كان الشاعر في الماضي يحتاج في تنشئته وتدريبه إلى عشرات من السنين. فإن بإمكان هذه الطريقة السريالية اللاواعية أن تريح المتأدبين من عناء الدربة ومشقة الانتظار، ذلك لأنها ستمكن الصبية والمراهقين من أن ينتجوا أجود الشعر وأغزره ما دام أن ذلك لا يقتضيهم إلّا أن يتخلصوا

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

من سلطة العقل ويسجلوا بعفوية ما يعمر دنياهم من أوهام وأحلام!

ولكي أبين ما تمتاز به طريقة اللاوعي على الطريقة التقليدية من حيث سرعة الإنشاء وغزارة الإنتاج فإني سأضرب المثل بما صنعته في مقالتي السريالية هذه، فقد كتبت «عاصفة الأشباح» في بضع دقائق، ولكن حينما أخذت في كتابة هذا التعقيب بأسلوب تقليدي واع قضيت في ذلك بضع ساعات.

وبعد، فهذه محاولة شاد من شداة الأدب العصري أنشرها وإني لأستميح الأدباء من كتاب الأدب اللاواعي العذر إن بدا لهم أن مقالتي لم تتخلص بعد من آثار الأسلوب الواضح الفصيح، أو ظهر لهم أني لم أحذق بعد فن الإبهام والغموض. وإني لأعدهم بأن الطاقِيَّةَ ستوحي إلي بمزيد من الهذر، وأن طول الغفوة سيمدني بفيض من أحلام اليقظة والهذيان!

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ابن الصحراء

عاش العربي في جزيرته يغالب القفار وتغالبه، ويجالد الصحراء وتجالده، فذللها وما أذلته، وراضها وما روضته. ألهبت جسده بلافح حرها، وعصفت به عواصف زمهريرها فما وجدته إلّا رجلاً شديداً. كان أكثر صبراً من جمالها، وأقوى بأساً من سباعها.

وظل ابن الجزيرة يصارع الصحراء خلال القرون الطوال، ينازع الوحش مطعمه، ويلقى العناء في سبيل قوته. فالصحراء القاحلة كانت تتحين الفرص لابتلاعه كلما آنست منه ضعفاً، وذئاب القفر تتربص لافتراسه إذا رأت منه نعومة وليونة. فما كان يقدر على العيش في هذه الجزيرة الجرداء إلّا الأصلح من أشداء المحاربين والزراع والرعاة والصناع والعاملين، أما الكسالى الناعمون فسرعان ما تبتلعهم رمال الصحراء، أو تفترسهم وحوش البراري.

وفي هذا الصراع الضاري من أجل البقاء، لم يملك

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أبناء الصحراء إلّا أن يكون لكل منهم في المجتمع مهنة يقوم بها، وحرفة يؤديها، فكان فيهم الزارع والراعي والحاطب والجَمَّال والصانع والعامل. فما كان فيهم عاطل، ولا وجد بينهم ضائع متسكع.

كان هذا حالهم عبر القرون الطوال، حتى إذا امتُحِنَ ابن الجزيرة في السنوات الأخيرة بنعمة طارئة، ونبع ناضب هجر المهن التي أبقت على آبائه وأجداده، وركن إلى الترف، واختار من الأعمال أهونها وألينها، وأخذ من العلم قشوره دون لبه وجوهره. وتناسى هذا الخلف الناعم غول الصحراء الذي يتربص به، ووحش القفر الذي يتحفز لافتراسه، فما غيرت الصحراء طباعها، ولا بدلت من مناخها، فإنها لا تقع على شاطىء نهر، ولا تتفيأ بظلال غاب.

وإن الأجيال المقبلة التي ستشهد نبع النفط حين يشح، ومورده حين ينضب، لن تقوى على العيش في الصحراء إلّا إذا اتخذت لنفسها نهجاً يشبه نهج الآباء والأجداد الذين استطاعوا أن يقهروا البراري والقفار بسواعدهم القوية وعزائمهم الصلبة. ولن يقدر الخلف على تذليل الصحراء وقهرها إلّا إذا نبذوا النعومة والطراوة، وتدرعوا بقوة العلم الحديث وتقنيته، بحيث يصبح لكل منهم مهنة حضارية يتقنها، وحرفة يدوية يجيدها.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وإذا ما أضاع الخلف وصية الآباء والأجداد، فليس بمستبعد أن تشهد صحاري الجزيرة وبراريها حين يحل القحط مثل ما تناثر في قفار أفريقيا من هياكل عظيمة آدمية نفقت حين عز القوت، ونضبت موارد المياه.

والله يداول الغنى والفقر بين الناس، ولكن الأيام أثبتت أن ثروة الأمم الحقيقية ليست في باطن أرضها، ولكنها تكمن في عقول أبنائها، ومهارة صناعها، فكم من أمة حرمت الثراء في أرضها، ولكنها رزقت نعمة الفكر في أبنائها، وهبة الاتقان في صناعتها، فما عرفت الفقر في حياتها، ولا الضنك في معيشتها.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

كاتب الحي

إذا رأيت ما تعرضه المكتبات التجارية في بلادنا حسبتنا أمة لا تسهم في فن القول إلا قليلاً، وإذا بحثت عن مؤلفات رجال الفكر والأدب عندنا فلن تجد منها إلا بضعة كتب ألقت بها أيدي المكتبيين في ركن قصي من أركان مكتباتهم. وستلحظ كذلك أن الكتاب المحلي الذي يوجد في مكتبات مدينة من مدن المملكة لا يوجد في معظم الأحوال بمكتبات المدن الأخرى.

وإذا ما أردت أن تعرف مم تتكوّن هذه المكتبات التجارية فستجدها عامرة بما أصدرته دور النشر العربية في بيروت والقاهرة، وإذا حاولت أن تعلم ما الكتاب الذي تتفق مكتباتنا في سائر المدن على عرضه فستجده ذلك الكتاب الوافد.. ولو أردت أن تتبينّ شخصية الكتاب المحلي في هذه

(*) كتبت عام ١٣٩٢ هـ.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المكتبات لوجدته قزماً لا يدري صاحب المكتبة أيمسكه على هون أم يدسّه بين الرفوف. وليس هذا واقع النشاط الثقافي في بلادنا ولا حقيقة الفكر عندنا. وإذا كانت المكتبات التجارية في معظم بلدان العالم مرآة للنشاط الفكري في بلادها، ومعرضاً للإنتاج الذهني الذي أسهم به أبناء وطنها، فإن مكتباتنا التجارية ليست سوى مرآة صدئة، ومعرض أصيب بالخواء.

ولست ألوم أصحاب المكتبات كل اللوم على هذا، ذلك أن عدم وجود وسائل للنشر والتوزيع قد أدّى بكتابنا المحلي إلى ما صار إليه. ولكن اللوم يتّجه إلى فئة منهم تعودت ألّا تنظر إلى الكتاب المحلي نظرة ترحاب، وصارت لا تتورّع من أن توصد دونه الأبواب. روى الدكتور منصور الحازمي أن أحد زملائه الباحثين المحليين في الجامعة ذهب إلى مكتبة من المكتبات التجارية في بلادنا وقد تأبط كتاباً ألّفه وأنفق في طبعه الآلاف من الريالات، وحينما اقترح على صاحب المكتبة أن يضم هذا الكتاب إلى ما في رفوفه من كتب، حدجه المكتبي بنظرة استنكار وقال بأنه لا يعرض من الكتب إلا ما تأكد من جودة مستواه وشهرة مؤلفه.

وقبل أن يخرج المؤلف من عنده خائباً، ألقى بنظرة عابرة على رفوف المكتبة ومناضدها فوجدها عامرة بقصص التسلية الرخيصة، ورديء الكتب والمجلات. ولم يذهب

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المؤلف بعيداً، ذلك أنه قد يمم وجهه شطر مكتبة أخرى، حيث عرض على صاحبها أن يؤي كتابه ويضمه إلى مجموعة الكتب التي تزخر بها مكتبته، ولكنه أبى وأتى بأعذار توحي بأنه لا يعرض في دكانه إلا ما أمدّته به دور النشر الخارجية التي غمرت مكتبته بجيد المؤلفات ورديئها. وقد آلم المؤلف المحلي أن رأى هذه المكتبة تعرض كتباً لعدد من زملائه في الدراسة ممن احتضنتهم دور النشر في القاهرة وبيروت، وما كان هناك من فارق إلا أن كتاب مؤلفنا المحلي قد دلف إلى المكتبة ملتفاً بعباءة، متعممًا بعقال، أما كتب زملائه القاهريين والبيروتيين فقد وفدت بربطة عنق وزي أجنبي. ولم يكن أمام المؤلف المحلي الذي أشبهت بضاعته بضاعة البائع المتجول «فرقنا» ــ إلا أن يحمل حقيبته ويخرج معزياً نفسه بأن من عادة زامر الحي ألاّ يطرب.

وفي الحقيقة أن هذين التاجرين ممن عناهم سهل بن هارون حين قال بأن بعض الناس قد شغفوا «بتعظيم الغريب، واستطراف البعيد، وليس لهم في الموجود الراهن، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى، مثل الذي لهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذ، وكل ما كان في ملك غيرهم، وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم. وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم».

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

هذه صورة الكتاب المحلي في الداخل، أما إذا أردت أن تبحث عنه في حواضر البلاد العربية التي غمرت مكتباتنا بمؤلفات أبنائها، فستطيل البحث دون جدوى، وسيكلّ منك الطرف، وتلتوي العنق قبل أن تعثر في إحدى مكتباتها على كتاب سعودي ألقت به الصدفة بين رفوفها فقبع منزوياً يعلوه الشحوب والاصفرار، وتنتابه ما بين حين وآخر حشرجة أحدثها ما تراكم عليه من أتربة وما تطاير حوله من غبار.

وإذا شئت أن ترى المؤلف المحلي الذي أدركته حرفة الأدباء، وعلته ذلة المؤلفين فستجده في مطبعة من المطابع الوطنية ينتظر بفارغ الصبر تجربة من تجارب كتابه، أو يدفع على مضض قيمة الطبع التي بلغت ثلاثة أضعاف ما أنفقته دور النشر الخارجية على كتاب من كتبها الوافدة. وحينما يودّع المؤلف المحلي دار الطباعة التي ملّته من كثرة تردده عليها، وطول ملازمته إياها، فلن يذهب إلى سوق الكتب التي ازورّت عنه، بل سيتجه إلى مصلحة من المصالح الحكومية التي تعوّدت تشجيع المؤلفات المحلية، وستراه متسكعاً في الردهة، طارقاً أبواب المكاتب علّه يسترد بعض ما أنفق في طباعة كتابه، ويتخلص من أكداس النسخ التي سدّت عليه مداخل بيته. وإذا كانت الحاجة قد ألجأت بعض شعراء العربية الأوائل إلى التكسب بشعرهم فإن أحفادهم المؤلفين قد ورثوا هذه الظاهرة، وأصيبوا بهذا الخلق، فصاروا

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

يتكسّبون بمؤلفاتهم، وأصبحوا يقدّمون نتاج أفكارهم بضاعة مزجاة. وما ألّفت الكتب لكي تتراكم في المستودعات، أو تهدى لمن لا يريد قراءتها.

وقد يطول الحديث في هذا الموضوع، ولكني أعتقد أنه لن ينقذ كتابنا المحلي من وضعه هذا، إلا أن تنشأ مؤسسة كبرى تتولىّ توزيع المؤلفات المحلية، وتنفق على نشر ما ترى نشره منها. ولا شك في أن هذه المؤسسة ستكون قادرة على أن تضمن للكتاب المحلي مكاناً ملائمًا في معظم مكتباتنا التجارية، وأن تقنع رواد هذه المكتبات بأن علماءنا ومفكّرينا لم ينتجوا بضعة كتب فحسب، ولكنهم قد ألّفوا في علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ وشؤون الفكر الأخرى ما قد تمتلىء به رفوف المكتبات في بلادنا، ولا سيما إذا ما ساعدت هذه المؤسسة في نشر ما خُطّ، وإعادة طبع ما نفد، وتشجيع ما سُوِّد.

وسيعلم القارىء حينئذ أن العلماء الذين لزموا حلقات الدرس في مساجدنا، والكتّاب الذين تخرّجوا في دور العلم التي عمرت مدننا وقرانا لم يصابوا بالعقم الفكري، ولم يركنوا إلى الخمول، ولكنهم قد أنتجوا نتاجاً مباركاً يعكس صورة حاضرنا، وينير طريق مستقبلنا، ويعتبر خير ما أنتج في ميدان الدراسات المتصلة بالجزيرة العربية.

إذا فعلت المؤسسة هذا، فإنها ستحقق توازناً بين

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مايقرؤه القارىء المواطن في الكتاب الوافد وفي كتابه المحلي، وستوجد في نفسه الثقة بمؤلفيه، والتفاؤل بمستقبله الفكري. فليس أدعى لانفصام الشخصية والإحساس بالغربة عن البيئة المحلية من أن يأكل المرء طعاماً ليس فيه شيء مما أنبتته أرضه، ويلبس ثوباً لم تحك خيطاً من خيوطه أنامل مواطنيه، ويقرأ إنتاجاً فكرياً ليس لعلماء بلاده وأدبائها إسهام فيه. وعندما تطمئن هذه المؤسسة إلى أن الكتاب المحلي قد أخذ مكانه اللائق به في مكتباتنا تتجه إلى توزيعه في البلاد المجاورة لكي تُعرِّف بإنتاجنا الفكري، وتوجد لنا ركناً مكتبياً يشعر جيراننا ــ الذين نعرف أحياناً عن مفكريهم أكثر مما يعرفه عدد كبير من مواطنيهم ــ بأن لنا وجوداً حقيقياً في دنيا الثقافة.

ويخيل لي أن هذا الأمر لن يكون شاقاً إذا ما فرضت المؤسسة على بعض دور النشر العربية ــ التي سخّرت لخدمتها عدداً من مكتباتنا ــ أن تقوم بتوزيع كتبنا المحلية في ديارها، كما أنه لن يكون صعباً إذا ما ذكّرت المؤسسة أصحاب هذه الدور بألّا يكونوا من المطففين «الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون». وليس التعريف بما أنتجته العقول والأفكار عندنا بأقل أهمية من حيث الدعاية والإعلام من التعريف بمظاهر العمران في بلادنا.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

العالم ومحدث النعمة

عكف العالم في مختبره يجرّب النظريات العلمية، ويطبّق الحقائق التقنية، ومرّ به محدث نعمة فسخر منه إذ أضاع أيامه في غرفة مظلمة، وحرم نفسه من المباهج التي تزخر بها الحياة من حوله. وقال له: وبم تفيدك النظريات العلمية حين تخلفها، وماذا تجديك هذه التجارب التطبيقية حين تفرّ منك أيام العمر هاربة؟

وابتسم العالم من مقالة مَن حسب الحياة متاعاً حسياً، وظن سعادة الأيام فراغاً فكرياً، ولم يحفل بهذه السخرية، أو يلق بالاً لذلك التساؤ ل لأنه أدرك أن هذا المائق لا يعبّر عن فكرة فردية، ولكنه ينطق بلسان أقوام من الناس تعيش أبدانهم في القرن العشرين، ولكن أفكارهم وأرواحهم إنما تنتمي إلى عصور بدائية كهفية خلّفها العنصر البشري وراءه منذ آلاف السنين.

وما درى الساخر أن العالم قد أوى إلى معمله لأنه وجد

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

في خلوته متعاً علوية سامية تملأ قلبه بالسعادة، وتغمر نفسه بالرضا حين يشعر بأن علمه قد أسهم في عمران الأرض، وأن عمره قد انقضى في البناء من أجل الحياة. ولو لم يخل المفكّرون إلى أنفسهم، ويأو العلماء إلى معاملهم لما تقدمت البشرية، ولما استطاع الإنسان أن يكتشف العالم الكوني الذي يعيش فيه.

ولو أن فلسفة اللذة قد سيطرت على الإنسان في جميع عصوره لما خرج من كهفه، ولما ارتقى في مستواه الخلقي عن الحيوانات الدنيا. ولو أن ملكة الفكر عند الإنسان قد أصيبت بالغيبوبة لانطلق سلطان الغرائز، وانفلت عقال الشهوات فارتكست الحياة البشرية إلى وهاد البهيمية، ولكن الإنسان المفكّر قد أوجد تلاؤماً بين رغبته النفسية، ونزعته العقلية، فأخذ من متع الدنيا ما يروّح به عن قلبه، ولكنه وجد المتعة الحقة في العمل العلمي يسهم به، وفي البناء الحضاري يشيده.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

لفتة الجيد!

عـرض التلفزيـون محاكمـات أدبية أنتجتهـا شركـة تلفزيونية تجارية. وقد تسلّطت هذه المحاكمات على أقطاب الأدب العربي، حيث نبش مؤلفها عن بعض المعايب والتهم التي نسبت إلى هؤلاء الأعلام فجعلها محور محاكماته.

ويبدو أن هذه المحاكمات قد لقيت من المشاهدين ميلاً إلى متابعتها، وذلك لأسباب عدة قد يكون من أهمها الرغبة في أن يسمعوا الحكم الأدبي الخبير في إنتاج هؤلاء الأدباء الـذين عمرت صفحـات الأدب العربي بـذكـرهم. لكن ما يؤسف له هو أن هذه الرغبة قد قوبلت بنية غير حسنة وتنفيذ غير متقن من قبل أصحاب البرنامج. فعادة ما تبدأ المحاكمة بتصوير البطل المتهم وهو في أضعف حالاته الجسمية والنفسية، ثم يؤتى بواحد من خصومه أو حسّاده ليكيل له التهم الشخصية واحدة تلو أخرى. وهكذا تكون المحاكمة سجالاً بين المتهم وخصمه إلى أن ينتهي البرنامج وقد ركّز في

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ذهن المشاهدين عدداً من التهم الشخصية والأدبية التي نسبت إلى هذا الأديب دون أن تتاح لهم فرصة يتعرّفون من خلالها على شيء من أسرار عبقريته الأدبية.

إنها محاكمات أدبية سوقية، ذلك لأنها نأت عن أسلوب المناظرة الأدبية والفكرية، وتشبثت بإيراد الشائعات والتهم. أفكان المتنبي في التاريخ العربي يشبه تلك الصورة الهزيلة التي صوّره البرنامج بها، وهل كانت شخصيته العملاقة قريبة الصلة بما أبرزه البرنامج من شخصية شحيحة متكسبة؟ لقد كان المتنبي وليد العبقرية العربية إبّان نضجها، وإن في شعره وفكره ما في هذه العبقرية من عمق وأصالة، كما أن شخصيته أكبر من أن يلم بجوانبها أحد من مدّعي الأدب، ذلك لأن في نور عبقريته ما يعشي أبصار المدّعين الحاسدين، بحيث لا يرون الشخصية ذاتها، بل يدركون ما أراهم الوهم من ظلالها.

وحسبي في الرد على مؤلف محاكمة المتنبي ما قاله الأخطل الصغير في قصيدته عن المتنبي:

عفواً أمير القوافي أيّ نابغة
لم يزرعوا حوله البهتان والكذبا
منعت عنهم ضياء الشمس فانحجبوا
فهل تلومهم إن مزّقوا الحجبا

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أضرمت ثورتك الهوجاء فالتهمت
من القريض الهشيم الغث والخشبا
وغال شعرك شعر الكائدين له
لنفسهم حفرت أيديهم التربا
حتى رجعت وللأقلام هلهلة
في كف أبلغ من غنى ومن طربا

وما قيل في شأن المتنبي ينطبق على الجاحظ وأبي العلاء المعري. فقد أحال البرنامج الجاحظ مفخرة البيان العربي إلى هزأة لا يجيد سوى رواية النوادر الفاترة التي لم يكن أبو عثمان الجاحظ يكره شيئاً مثل كرهه لها. وأين البرنامج مما حفلت به حياة الجاحظ من إنتاج فكري وإبداع بياني؟ إنه لم يقرب حتى من عتبة ذلك البناء الفكري الشاهق الذي أشاده أبو عثمان لنفسه.

أما شيخ المعرة ذو العقل الجبّار وصاحب الشخصية الفكرية الفريدة، فقد جعله البرنامج شيخاً ضريراً خاملاً يشبه أولئك الشيوخ العاجزين الذين يقعدون للتسوّل في جنبات المساجد. وقد شاء مؤلف البرنامج أن يلصق به كل ما خطر بالبال من تهم، ولكنه لم يحاول أن يلقي الضوء على الناحية الأساسية في حياة أبي العلاء، ألا وهي تلك العبقرية الأدبية الفلسفية.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وهكذا حوّل البرنامج مثل هذه العبقريات العربية إلى شخصيات أقزام ذهبت التهم والشائعات بما لها من قدر كبير في ميزان أدب العربية وفكرها. ولو كان الكاتب يؤلف مسرحيات أدبية عن هؤلاء الأعلام لقلنا إنه قد أباح لنفسه ما يجيزه فن المسرحية من انطلاق في مجال الخيال، ولكنه كان يُعِدُّ برنامجاً توثيقياً تمثيلياً لم يلتزم فيه بما يقتضيه مثل هذا النوع من أمانة في إيراد المحامد والمعايب.

ولو أن الممثلين أجادوا التمثيل لكان لهم في هذا شيء من شفاعة، ولكنهم كانوا ولا سيما من قاموا بالأدوار الرئيسية أشبه بأقزام تزيّوا بزي عمالقة! أما الممثلون الآخرون فلم يكن عيبهم أنهم لم يحسنوا التمثيل فحسب، ولكنهم كانوا يلحنون ويخطئون في نطق الكلمات رغم كونهم يمثلون أناساً عاشوا في البيئة الأدبية إبّان عصور العربية الأولى.

أما المذيعة مقدمة البرنامج فقد كانت إجادتها لحركات العيون أكثر من معرفتها بحركات الإعراب! وقد حرصت حين تقديم برامجها على أن تكون المعنية بقول القائل:

كل شيء موقع فيك حتى
لفتة الجيد وانكسار العيون

وبعد، فإن المرء لا يملك إلا أن يتساءل عن الهدف الذي وضعت هذه المحاكمات الأدبية من أجله، فإن قال

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

قائل بأنها وُضعت من أجل الفن قلنا إن حظها في الفن قليل، وإن ادّعى مدّع بأنها إنما أُلّفت لإنعاش الحياة الأدبية، وإحياء ذكرى أعلام الأدب رددنا بأنها لم تتعرض للأدب ولم تكن مجالاً لإظهار النواحي الفنية، بل اتخّذت وسيلة لإبراز المعايب الشخصية. ولذلك فإن المرء لا يملك إلا أن يشعر بأنه ربما قصد بهذه المحاكمات أن تكون محاكمة للتراث الأدبي العربي، ومحاولة للتشكيك في قيمته! فلقد حرص مؤلف هذه المحاكمات على أن يقلّل من قدر أعلام الأدب في عيون المشاهدين، وجهد في أن يصرف الأنظار عن عبقرياتهم الأدبية والفكرية، وأن يصوّب السهام إلى ما فيهم من نواحي الضعف البشري.

ومن البديهي أنه إذا ما صغر الجاحظ والمتنبي وأبو العلاء في نظر المشاهد صغر ذلك التراث الأدبي الفكري الذي يمثلونه، وإذا ما تهاوت أركان هذا التراث انهار البناء الفكري الأدبي الذي يكوّن شخصية العربي، ويشهد له بالأصالة والنبوغ.

وقد يبدو هذا الشعور وهماً، ولكن إذا ما تذكر القارىء أن حملة الهجوم على تراث العربية ما زالت تطيح كل يوم بمعقل من معاقل هذا التراث، حق للكاتب أن يشعر بمثل ذلك الشعور، وأن يساوره مثل هذا الخوف، ذلك لأن هناك فئات منبثة في أرجاء الوطن العربي تحرص على أن تسخر من

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

التراث العربي، وتسعى لأن تطمس عبقرية أعلامه، وذلك لكي يصاب الفكر العربي الحديث بالفراغ والخواء الذي لا يملأه إلا ما استورد من مفاهيم فكرية، وترجم من نظريات أدبية، ولهذا شاعت بين المتأدبين الشباب طلاسم الرمزيين، وتهويمات السرياليين، وفوضى الفوضويين.

وتذكّرني هذه المحاكمات الأدبية العربية بما فعلته أجهزة الأعلام في بريطانيا بمناسبة مرور ثلاثمائة عام على وفاة الشاعر الإنجليزي الكفيف جون ملتون، فلقد خصصت لذكراه أسبوعاً أذيعت خلاله بعض أعماله الفنية، وتليت قصائد من أجمل شعره، كما أن التلفزيون قد قدّم مسرحية طويلة عن هذا الشاعر الكفيف، فاصطفى لها خيرة الممثلين، وجعل الأضواء تتّجه فيها إلى عبقرية الشاعر الفنية والفكرية وما حفلت به من أحداث أثّرت في إنتاجه وفي تاريخ وطنه، وهكذا صوّروا هذا الشاعر الكفيف عملاقاً في مجال الأدب والفكر قوياً صلباً في ميدان الحياة العامة، فأبرزوا محاسنه وتغاضوا عن نقائصه، ولم يصوّروه بمثل ما صوّرنا به شاعرنا الكفيف أبا العلاء المعري، حيث عقدنا حبوته في ركن من أركان بيته، وصوّرناه بصورة رجل كليل الذهن قد ذهبت النقائص والمعايب بفضله.

وهكذا يعامل الغربيون أدباءهم ويقفون من تراثهم! أما نحن فلم تكن هذه المحاكمات الأدبية سوى مثال لما نلقى

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

به أدباءنا ومفكّرينا وتراثنا من ازدراء وتحقير. وإن من المريب حقاً أن يحرص خصوم التراث على أن ينقلوا لمواطنيهم العرب ما في أوروبا من بِدَع أدبية ونظريات فنية لا يتبعها هناك إلا شراذم قليلة من أنصار مبتدعيها، ولكنهم يتحاشون أن يصوّروا لمواطنيهم الحقيقة في احتفاء الغربيين بتراثهم، ويتناءون عن أن ينقلوا لقومهم ما في بلاد أوروبا من تقاليد أدبية عريقة.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ليل الصقيع

وتلفت المسافر من حوله ليحدث عن المفاوز التي قطعها في بيداء الزمن، ولكنه وجد أن قد أحاط به ليل أبدي يعمره الخواء، وتسكنه الوحشة.

وفتش في ضوء القمر الباهت عن أوراق العمر التي تساقطت في جنبات الصحراء فرأى هشيمًا متناثراً قد سفته الرياح، وداسته أخفاف الإبل.

وعاد المسافر إلى شجرة العمر يتحسس ما بقي من أغصانها، فوجد أعواداً جرداء تندى بالجدب، وتوحي بالإفلاس والتباب.

وحين آده السير، وأملته الوحدة، أوى إلى خيمته. وهبت ريح عاصف فاقتلعتها، ونبذته في الصحراء حيث تتجاوب من حوله الأصداء، وتلتحف الأرض بالصقيع.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وعندما أشرقت الشمس، لم يتذوق الدفء، ولم يلامس الضياء. فقد نبت الصقيع في قلبه، ونما الخواء الإنساني في أعماق نفسه.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

حولية

لعل من الأجدر بهذه المقالة أن تدعى ــ إن قدر لها أن تنشر في باب اليوميات ــ حولية، ذلك لأني كنت أحلم منذ ما يزيد عن عام في أن أرى اسمي متألقاً في علياء صفحة من أبرز صفحات جريدة الرياض، وأن تطل على القراء الأعزاء صورتي وقد حفت بها أسطر بارزة مما اصطفاه المحرر من أقوالي!

وظل هذا الحلم يعاودني كلما رأيت المحرر واقفاً بباب الصفحة الثالثة ينادي: هل من كاتب فأمنحه الصفحة وما فيها من مجد، هل من منشيء فأخرجه من دنيا العزلة إلى عالم الأضواء؟ ولكن الحلم لا يلبث أن ينقشع كلما تذكرت أن بعض الكتاب قد بدأوا كتابة اليوميات لأنهم أتوا بمقالات مبدعة هي زبدة الحقب كما قال أبو تمام، ولكن ما إن مضت

(*) نشرت عام ١٣٩٢ هـ.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الأسابيع حتى جف النبع وقل الماء المعين، فاضطروا أن يصنعوا مثل صنع أصحاب «الوايتات» الذين يمزجون ماء «نمار» بالملح الأجاج!.. وهكذا مضت الأيام وأنا أقدم تارة وأحجم أخرى حتى صارت مقالتي هذه جديرة بأن تنشر في باب «من عام لعام».

لست أدري لم أتيت بهذه المقدمة الطويلة التي كان حديث النفس فيها أكثر من الحديث عن الموضوع الذي سأكتب فيه، ولعلي أردت التشبه ببعض كتاب اليوميات الذاتية حتى أعد في أرباب المقالات الطوال. لقد قامت أبواب اليوميات في صحفنا على أقلام عدد من الكتاب المشهورين والشباب المثقفين الذين حاولوا أن يسهموا في الحركة الفكرية إسهاماً جاداً مثمراً، ولكن انشغالهم بأعمال أخرى غير حرفتي الأدب والصحافة قد جعل من الصعب على بعضهم أن يوفروا لمقالاتهم التحبير والإتقان، كما أن إلحاح المطبعة في طلب الزاد اليومي أو الأسبوعي قد اضطر عدداً منهم إلى أن يتخذ أسلوباً حثيث الخطى، سريع التأمل، أو يخلي مكانه لمن وجد في نفسه حب الأدب وعشق الشهرة، فأصبح امتلاك صفحة من صفحات الجريدة أيسر من الحصول على دبلوم من الدبلومات التي كانت تمنحها بعض معاهد الصحافة بالمراسلة.

لا شك في أن الصحافة والأدب في بلادنا يعانيان من

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

قلة المحترفين المبدعين الذين نذروا حياتهم للعمل في هذين الميدانين. وربما كانت هذه الحقيقة من الأسباب التي ألجأت أرباب الصحف إلى تقديم صفحاتهم الغالية لأيّ كاتب يهوى الأدب، حتى ولو كان ممن لا يجدون من الفراغ ما يمكنهم من كتابة شيء ذي بال، أو كان من الناشئة الذين ما زالوا في مرحلة الدربة والمران. إن أعمدة الصحف أغلى من أن تملأ بمقالات أرسلها كاتبوها بعد أن أصابوها بعدوى التثاؤب، وغلفوها بغلف الملل. وإن جرائدنا اليومية أرفع من أن تصبح صحفاً حائطية فتعود إلى تلك الفترة التي مرت بها صحافتنا منذ ما يزيد عن ثلث قرن إبّان نشأة جريدة صوت الحجاز.

إني لا أقلل من قيمة كتاب الأعمدة واليوميات، ولكني أدعو إلى مزيد من التفرغ والتنقيح والإتقان، ولا أهوِّن من شأن الكتاب الناشئين ولكني أدعوهم إلى مزيد من التمرس باللغة وعمق الثقافة والفكر، وأذكّرهم بألا يخدعوا بسرعة الصعود إلى أعمدة الجرائد، فكل مجرٍ في الخلاء مسر. وربما كان هؤلاء الشباب الذين تفتحت أعينهم على حضارة النصف الثاني من القرن العشرين خير من يدرك أن شؤون الفكر والأدب لا تقاس الآن بالمقياس المحلي، بل تقوَّم بالميزان العالمي الإنساني. وهم يدركون كذلك أنه إذا ما التحق الصحفي الناشيء بصحيفة من الصحف المتطورة فإن قدميه ستصابان بالحفا، وإن مداده سينضب قبل أن يرقى

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

إلى عمود من أعمدة جريدته.

فإذا استطاعت جرائدنا اليومية أن تقنع الكتاب المتمرسين بأن يكتبوا يوميات ومقالات تتسم بأصالة الفكر، وإتقان الصنعة، وجمال الأسلوب فلتبق على هذه الأعمدة واليوميات، وإذا ما استطاعت صحفنا أن تحتضن المواهب الشابة فتدربها تدريباً جاداً في ميدان الأدب والفكر، ثم تفرِّغ من يبرع من هؤلاء الشباب لمثل هذا العمل فإن الجريدة لن تضطر إلى قرع أبواب كتاب «الاحتياط» أو الأدباء «القدماء».

وإذا ظلت الصحيفة غير قادرة على أن تأخذ من الأدباء جيد ما ينتجون، أو تفرغ المواهب الشابة المدربة للعمل الصحفي، فليس جديراً بها أن تقفل بعض أبوابها الثابتة فحسب، بل أن تنقص من صفحاتها. فإذا كانت تصدر في ثماني صفحات مثلاً. فماذا يضير القاريء إن صدرت في أربع صفحات تخصص اثنتين منها للأخبار المحلية والخارجية، وتملأ الصفحتين الأخريين بالإعلانات والأبواب الثابتة والأعمدة المركزة؟

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المواطن والعصر

إن روح المواطنة تتطلب من ابن هذه الأرض الطيبة أن يسائل نفسه عم أسهم به نحو تطوير قدراته الذهنية وخبرته المهنية حين دخلت البلاد في طور التنمية الشاملة. وهي تقتضيه ألا يكون كلاًّ على الوطن لا هم له إلاّ أن يبسط كف الأخذ ويقبض يد العطاء.

إن التغيير في المأكل والملبس والمسكن والمركب ليس بذي شأن في المعيار الحضاري، ولكن التطور الحقيقي يكمن فيما يناله الفكر من تدريب عملي، وما تكتسبه اليد من مهارة تقنية.

إذا ذَكَّر المرء نفسه بهذه الحقيقة فإنها ستكون هادياً يرشده في سيره خلال التيه الإعلامي الذي يحيط به من كل جانب، حيث تتصارع وسائل الإعلام البصرية والسمعية والكتابية على امتلاك قلبه، والاستحواذ على وقته. إن لهذه الوسائل مظهران، مظهر جد ومظهر لهو، وإن من حق المرء

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أن يروح عن قلبه كلما عمل عملاً جاداً، وأنتج إنتاجاً مثمراً. ولكن من الحكمة ألا يسلم الفرد نفسه لجانب اللهو السلبي، فيكون نصيبه منها مقصوراً على المجلات المصورة وصفحات التمثيل والرياضة البدنية، وأفلام التسلية التجارية.

لقد سمي هذا العصر بعصر تفجر الحقائق العلمية، ولذا كان لا بدّ لكل من يريد أن ينتسب لهذا العصر أن يغترف بيده من نهر المعرفة الصاخب، ويرتشف من ينابيع الفكر المتفجرة. وإذا ما أسلم المرء قياده لوسائل العبث والتسلية والترف صار إنساناً هامشياً يعيش على حافة المجتمع العصري، وينتمي إلى عهود متخلفة سيرتها فلسفة المتعة، وعمرها الخواء الإنساني.

وما دام أنه لا يوجد مكان في هذا العصر إلّا لمن تحلى بالقيم العلمية، وتسلح بالمهارات المهنية، فإن من بر الإنسان بنفسه ووطنه أن يكون له في كل يوم من أيام عمره حقيقة علمية يعرفها، ومهارة تقنية يكتسبها.

أما إذا هجر المتعلم سبيل المعرفة، فإنه سرعان ما يرتد إلى الأمية الفكرية، ويركن إلى رتابة الحياة اليومية. فالماء يأسن إذا ركد، والذهن يصدأ إن لم يجل ويصقل.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أحبيب هذا النشء!

رحل إلى الدار الآخرة منذ أيام[1] معلم الأجيال في مدينة عنيزة الأستاذ العالم صالح الناصر الصالح، وليست هذه الكلمة رثاء فالرثاء استجابة انفعالية مؤقتة، ولكنها وميض من سيرة حياته التي بارك الله له فيها فكانت «كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة».

في صبانا كان شيخنا الأستاذ صالح ـ رحمه الله ـ يلقننا قول ابن الرومي:

وحَبَّب أوطان الرجال إليهم
مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم
عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

(١) كتبت عام ١٤٠٠ هـ.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وكأني بهذا القول وقد هز مشاعر شيخنا منذ نصف قرن عندما أتم طلب العلم في العراق، فما قر له قرار حتى شد الرحال عائداً إلى عنيزة موطنه، ليكون لها كالمزنة التي أظلت سماء أرضها فأمطرتها حتى أحالت جدبها خصباً، وقفرها روضاً.

وعاش شيخنا في عنيزة نصف قرن من الزمن حياة محضها للعلم، وأخلصها للتربية والتعليم. فلم يشغل نفسه بحطام الدنيا، بل انصرف إلى تعليم أبناء مدينته جيلاً بعد جيل، حتى صار اسمه عنواناً للعلم ورمزاً للتعليم. ولو سألت جمعاً من الأجيال المتعاقبة في عنيزة عن الرابطة التي تربط بين قلوبهم وتوحد مشاعرهم لقالوا بأنها تلك الأخوة العلمية التي ينتمون فيها إلى شيخهم الأستاذ صالح.

وما كان التدريس عند أستاذنا مهنة أو وظيفة، بل كان موهبة لم يكن يملك إلّا أن يستجيب لها، ورسالة مقدسة نذر حياته من أجلها. وكان اليوم الدراسي عند تلاميذه يبدأ مع مطلع الشمس وينتهي عند غروبها، فكانوا في الصباح يتلقون دروسهم، أما في العصر فكانوا يتسابقون ليتحلقوا حول أستاذهم وهو يقرأ لهم ما اختار من كتب الثقافة عريقها وحديثها، يسحرهم إلقاؤه العذب وروحه الشاعرة، وتأسرهم شخصيته الفذة التي كانوا يشعرون نحوها بشعور يمتزج فيه الحب بالمهابة. وما أذكر أني قرأت قصيدة الأخطل

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الصغير في المعلم إلّا وتراءت لي صورة أستاذنا الشيخ صالح بين الأبيات، وخيل إلي أن الشاعر إنما عناه حين قال:

أحبيب هذا النشء
تسقيه على ظمأ دماك
روَّيته أدب الكلام
يذوب فيه أصغراك
فمشى على سنن الهدى
مترسمًا فيه خطاك
يا ناثراً فلذ الحياة
حياة أكرمها فداك
حقَّرت ما وهب الكرام
أما وهبت لهم صباك؟
لولاك ما سكر البيان
بهم، ولا غنى الأراك
بين المحابر والمنابر
ذاب ليلك في ضحاك
تشكو النجوم من السهاد
وليس تشكو مقلتاك
كم وردة من غرس كفك
راح يجنيها سواك

لقد جند حياته في سبيل مدرسته وطلابه، وما أظن

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أحداً من تلاميذه إلاّ ويذكر له موقفاً كان السبب في توجيهه إلى طريق من طرق الخير. عندما أتممت الدراسة الابتدائية التحقت بإحدى الوظائف على غير رغبة من أستاذنا، وفي ذلك العام وفد إلى مدينتنا عالم أزهري جليل جاء لافتتاح معهدها العلمي، وعندما حان وقت الافتتاح ودلف الطلاب إلى قاعة الدرس وقفت بالباب مع من وقف لمشاهدة فاتحة الدروس، وكنت بجوار أستاذي الشيخ صالح الذي دفعني بيده لكي أدخل القاعة، وحين قلت له بأني لا أنوي مواصلة الدراسة قال: احضر هذا الدرس واصنع بعد ذلك ما شئت. وقد استجبت له وأخذت مكاني بين الطلاب، وحينما انتهى الدرس وجدتني أعود إلى البيت وأنا أحمل رزمة من الكتب الدراسية، أما الوظيفة المبكرة فقد هجرتها ولم أعرج عليها بعد ذلك اليوم. وما وقفت بعدئذ أمام قاعة من قاعات الدرس أو مجلس من مجالس العلم إلاّ وأحسست بيده الأبوية الحنون تحثني على الدخول، وتدفعني إلى المشاركة في طلب العلم.

رحمك الله أبا أحمد، فقد رحلت رحيلاً لن تعود بعده إلى مدينتك غيمة تروي الربع أو مزنة تبل الصدى. أراد القلم الذي رعيته يافعاً أن يخط أسطر وفاء في ذكراك، ولكنه أصيب بالعي حين باعدت الأيام بينه وبين من كان يبدع في صياغة الكلمة، ويحذق صنعة الحرف.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

كان المثل الأعلى هدفك الذي ترنو إليه، وكان جوهر الأشياء غرضك الذي تسعى إلى إدراكه.

وما كنت تحفل بالجاه الدنيوي، أو ترجو من أحد جزاء أو شكوراً. بل لقد كان الثناء من تلاميذك يؤذيك، والإطراء من محبيك يجرح مشاعرك.

يا من قبس من نور من علم بالقلم!

ينقطع بالموت عمل كثير من بني الدنيا.

ولكن لك من العمل ما يدوم أثره، ويصل إليك أجره، لقد تركت علمًا ينتفع به، وأنشأت أبناء صالحين يدعون لك. رحم الله شيخنا. وأنزله منازل الصديقين والشهداء والصالحين.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

معلم التنمية

ومرّ محدث النعمة بالمعلم وقد تحلّق التلاميذ من حوله فسخر منه، وقال بأنه ليس سوى مؤدب صبية. وراحت القرون العربية تتناقل هذه الفرية، فظلّ العلم ضعيفاً عند العرب فقد استهانوا به ولم يقدروا المعلم حق قدره. وتناسوا أن المعلم لا يختلف عن أرباب المهن الأخرى، فهو لا يقل شأناً عن طبيب الأبدان، ومهندس الصناعة، وخبير الزراعة. ذلك لأنه يربي العقول، وينشىء النفوس الغضة، فهو أمين الأمة على فلذ حياتها، وهو الذي يوجّه الأجيال لصنع مستقبلها. ونسي القوم أنه إذا ما هان أمر المعلم ضعف التعليم فضعف بضعفه الطبيب في طبّه، والمهندس في هندسته، والاقتصادي في فكره.

فلا تحزن أيها المعلم إذا ما غمط الزمن العربي حقك، فسوف يعلم كثيرون حين يجمع العمر في ساعة يرجع المرء فيها إلى نفسه، ويحاسب وجدانه بأنك كنت تشيد وتبني، وأن

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

بعض الساخرين كانوا يهدمون ولا يصلحون.

فانطلق إلى العمل الميداني غير عابىء بهذا الزبد الذي يطفو فوق سطح الحياة، فالمشعل الذي تحمله بيدك إنما خلق ليهدي السائرين في درب الغد جيلاً بعد جيل. وأنت تعلم أن هذا النشء الذي تصوغ مستقبله وتشكّل فكره، قد خلق لزمن غير زمننا، فاعمل على أن يكون خيراً من آبائه، وأن يعدّ نفسه لحياة المستقبل إعداداً قوياً، فالتعليم الجيد ليس مظهراً من مظاهر الزينة، وليس شهادات ورقية منمقة، ولكنه قوة في الفكر، ومهارة في الذهن، ودربة في اليد. فلا قيمة للأعداد الوافرة من المتعلمين إذا كانت لا تجيد مهنة، ولا تحسن عملاً تقنياً.

فاغرس في نفوس تلاميذك حب العمل، وابذر في قلوبهم الإيمان بشرف المهن. ولا يكن همك أن تلقّنهم صفحات من الكتب سرعان ما تتلاشى من أذهانهم، ولكن احرص على أن توجّههم إلى العلوم العملية، والفنون التطبيقية، وذلك لكي يتّجه كل منهم حين يصبح رجلاً إلى عمل من الأعمال الميدانية، ومهنة من المهن التقنية. فقد عشنا زمناً طويلاً ونحن نبدىء ونعيد في حفظ الشروح والمتون. حتى إذا أتت التنمية وجدت فينا عدداً كبيراً من كتّاب الدواوين، ولكنها لم تجد بيننا إلا قليلاً من الصنّاع والأطباء والمهندسين.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وأنت تعلم أن كيفية التعليم أجدى على الأمة من كميته، فليكن غرضك أن تخرج للمجتمع نماذج متعلمة جيدة، فإن عشرة من الدارسين درساً عملياً متقناً خير من آلاف مرّت ركابهم مسرعة بمراحل التعليم، فلم يكتسبوا مهنة، ولم يحذقوا حرفة.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

نظرة المشتغلين بالعلوم التطبيقية إلى اللغة العربية وأدبها

يكاد دارس اللغة والأدب في البلاد العربية يتوارى من أقوام العلم الطبيعي وطوائف الفن التقني، وذلك من جراء ما اختار من بضاعة مزجاة واتخّذ من تجارة كاسدة. وليس يدري هذا الدارس أيمسك على أدبه أثناء سيره في الحياة أم يتبرأ منه وينتمي إلى علم من تلك العلوم الحديثة الوافدة؟ ولو سألت أكثر دارسي الأدب العربي لعلمت أنهم لم يصطفوا هذا الفن، ولكن ظروفاً معينة قد ساقتهم إلى دراسته سوقاً.

ولست أدري في الحقيقة ما الذي جعل رجل الأدب في البلاد العربية لا يأخذ منزلة اجتماعية تماثل منزلة المهندس أو الكيميائي مثلاً، ولكني أعلم أن الابتسامة المشفقة ستبدو على شفتي المهندس أو الكيميائي إذا ما حاول رجل الأدب أن يرقى إلى مكانة تجاور مكانتهما. ولا يعلم رجل الأدب أكان هذا بسبب قدم فنه وعراقته، وحداثة العلم التطبيقي وغرابته، أم أن سببه نقمة الشرقي على ماضيه وتراثه، وتشبثه

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

بالجانب المادي من حضارة الغرب ومدنيته؟.

ولو اقتصر الأمر على الزهد بالأدب لخفّت المشكلة، ولكن ذلك قد أدّى إلى الاستهانة بعلم اللغة الذي تشترك العلوم والفنون في حاجتها إلى اتّخاذه وسيلة تعبّر بها، وأداة تفصح بها عن نفسها، فأصبح دارس اللغة شبيهاً بالأديب في منزلته، وصارت دراسة اللغة مماثلة لدراسة الأدب من حيث الزهد بها والنفور منها. ووقر في ذهن الشرقي العربي أن علمي اللغة والأدب فنّان يُتّخذان لإزجاء الفراغ، وعلمان يلجأ إليهما من لاحظ له في إدراك العلم الطبيعي ومبادئه. واستقر في الأذهان بعد ذلك أن العلوم تنقسم إلى قسمين، أحدهما صعب وهو العلم الطبيعي، والآخر سهل وهو العلم الإنساني الذي ينتمي إليه الأدب واللغة والتاريخ والفلسفة، والذي لا ينصرف إليه إلا من أغلقت أمام ذهنه أبواب العلم الأول. ولعلّ هذا التفريق قد أوحى إلى الناس بأن دور العلوم الطبيعية دور رئيسي، ودور العلوم الإنسانية شيء ثانوي، ولو اعتبر الناس العلوم واحدة في شرفها، متماثلة في حاجة الإنسان إليها لصلح الأمر، ولو أدرك الدارس أن سهولة بعض العلوم وصعوبة بعضها أمر نسبي يعتمد على ميله ونوع قدرته الذهنية لكان ذلك طبيعياً، ولكن الذي يُخشى منه على الحياة الفكرية هو أن يتجه الموهوبون إلى العلوم الطبيعية ويستهين من ينصرف إلى الفنون الإنسانية

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

بفنّه، ويزهد فيه فتصاب ناحية من أهم النواحي في حياة الإنسان بالضمور وفقدان الحيوية.

إن المجتمع الطبيعي هو الذي تتعايش فيه جميع العلوم والفنون، فلا يطغى فيه علم على فن، ولا يستهين فيه عالم بأديب، ذلك لأن كلاً منهما يؤدي دوراً يغاير دور الآخر من حيث النوع، ويشبهه من حيث الانصراف إلى خدمة الإنسان، فالعالم الطبيعي أو التطبيقي يقوم بوظائف الإنسان المادية الحسية، ولكن العالم الإنساني يتولى شؤون النفس والفكر والروح. فإذا قال عالم طبيعي بأن العلوم الإنسانية ليست ضرورية للحياة فهو إنما يريد فصل الروح عن الجسد، وإذا لم يقدّر أديب أو مفكّر أو مؤرخ الدور الذي تقوم به العلوم الطبيعية في خدمة الإنسان فإنه يكون كمن يريد أن يحرم الجسم البشري من الغذاء. فالعالم الطبيعي والأديب المفكّر ضروريان للحياة الإنسانية، فإذا كان عالم النبات ــ مثلاً ــ يقدم للإنسان ما تحتاجه معدته من طعام، فإن الأديب المفكر يقدم له ما يحتاجه فكره وروحه من زاد.

لقد برزت ظاهرة الانفصام بين العلمين الطبيعي والإنساني في العالم العربي في هذا القرن بشكل كاد يحرم المشتغلين فيهما من فرص الإجادة والأصالة والإبداع. ذلك لأن تاريخ البشرية يثبت أن الأمم التي أسهمت في حضارة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الإنسان هي تلك التي لم يطغ فيها علم على علم، بل عاشت فيها علوم الإنسان إلى جانب علوم الطبيعة. كان هذا شأن أمة اليونان، وكان هذا شأن العرب حين آلت إليهم مقاليد الحضارة. وعندما بدأت أوروبا عصرها الصناعي الجديد، فتن بعلوم الطبيعة فيها خلق كثير في القرن التاسع عشر، وكادت العلوم الطبيعية التطبيقية تطغى على علوم الإنسان، ولكن من نادوا بمجد العلم الطبيعي لم يلبثوا أن أصيبوا باليأس وخيبة الأمل عندما رأوا ما أتت به الحرب الكونية الأولى ربيبة العلم الطبيعي التطبيقي، وعندما لمسوا ما أصيب به إنسان الغرب من تحوّل خطير في حياته الاجتماعية والفكرية. وإذا كان العالم الغربي قد مضى أشواطاً بعيدة في ميدان التقدم المادي، فإنه قد خسر خسراناً مبيناً في ميدان الروح والحياة الاجتماعية، فقد أتت العلوم الطبيعية التطبيقية التي انفلتت من عقالها الإنساني على ما في حياة البشر الروحية من أخضر ويابس، وقضت على ما كان يحلم به الإنسان من حياة وادعة مسالمة.

فليحذر المربّون في الشرق العربي أن يضخّموا جانباً من حياة الإنسان ويُضعفوا جانباً آخر، لأن ذلك يحدث الهزال في عضو من أعضائه، ويصيب العضو الآخر بالتورم، وحينما أبدع الخالق صنع الإنسان أوجد التوازن بين فكره وجسده، وأحكم التوافق بين مادته وروحه. فإذا ما أراد أحد أن يخالف

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

هذا القانون ويخرج على تلك السنن، فسيختل التوازن ويتلاشى الوفاق.

لم يدرك عالم الغرب هذه الحقيقة إلا بعد أن نبّهته الكوارث الاجتماعية التي لم يكن له قبل بها، ولم يفطن مفكّروه إلى المصير المؤلم الذي انحدرت إليه مجتمعاتهم إلا بعد أن اتّسع الخرق على الراقع. وإذا لم نكن قد حصلنا بعد على التقدم المادي التقني الذي ظفر به الغربيون، فلنحذر من أن نصاب ــ كعادتنا ــ بالظواهر الاجتماعية السيئة والأزمات الروحية التي تعاني منها بلاد الغرب، ذلك لأننا في تشبثنا بالمظاهر الخارجية للحضارة الغربية نعجز ــ دائمًا ــ عن إبداع الآلة، فنقنع بنقل أخلاق هذه الآلة.

إن هناك من يزمّ بأنفه إذا ما ذكر الأدب أو اللغة قائلاً بأن هذه الفنون ليست سوى كلام فارغ، وإن هناك من يستهين بدراسة هذه العلوم وما إليها، لأنه لم ير فيها نفعاً مادياً، ولم يلمس لها فائدة حسية، وما أتى هذا الشعور إلا من نظرة جزئية نحو الكون، وما أوحى به إلا نظر قصير المدى في العناصر التي تكوّن حياة الإنسان. وما قال بهذا القول أهل الحضارة المادية، ولا رأى مثل هذا الرأي صنّاع المدنية الغربية. وإذا كانت المناهج في الجامعات العربية تكاد تفصل فصلاً تاماً بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، فإن المناهج في أكثر البلدان تقدماً وهي الولايات المتحدة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الأمريكية ــ مثلاً ــ تحاول جاهدة أن تجمع بين هذين الميدانين فتلزم دارس العلوم الطبيعية بدراسة علوم الإنسان، وتفرض على دارس العلوم الإنسانية أن يعرف شيئاً من العلم الطبيعي، ولذلك فإنه لا توجد في بعض الجامعات الأمريكية كلية للآداب وأخرى للعلوم الطبيعية، بل توجد لهذه الفنون والعلوم جميعاً كلية واحدة تدعى «كلية الآداب والعلوم»، وما ذاك إلا لأنهم أرادوا ممن يتخصص في الفيزياء النووية مثلاً أن يدرس الأدب والفلسفة والتاريخ إلى جانب دراسة الفيزياء، إذ من خصائص الدراسات الإنسانية أن توسّع الأفق وتثري المشاعر وتعمّق العاطفة البشرية، وإذ أن من صفات الدراسات الطبيعية التطبيقية أن تمد الإنسان بالقوة وتزوّده بالسلاح وتغريه بالسطوة. وقد أرادوا ألّا يقبض على زناد الطاقة النووية ــ مثلاً ــ مخلوق آلي ضاق عنده الأفق، ونضبت العاطفة الإنسانية.

وقد ذهبت بعض الجامعات الأمريكية إلى أبعد من ذلك، فأوجدت ضمن أقسامها مركزاً للبحث في شؤون الإنسان من كل نواحيه، وجنّدت لذلك المختصين في دراسة حياة الإنسان المادية والفكرية، فاجتمع في هذا المركز الطبيب إلى جانب الفيلسوف، وجلس المهندس إلى جوار الأديب، وناقش فيه الفيزيائي المؤرخ، وما ذاك إلا لأنهم أرادوا أن ينظروا إلى الإنسان نظرة واحدة شاملة علّهم يستطيعون حل

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مشاكله، وفهم ما غمض من أسرار تكوينه.

وما دام الحديث هنا عن الولايات المتحدة الأمريكية رائدة الأمم في ميدان التقدم الصناعي، وأكثرها معاناة من كوارث طغيان العلم الطبيعي المادي، فإنه يحسن أن يشار إلى أن كليات الطب في هذه البلاد لا تقبل الطلاب بعد حصولهم على الشهادة الثانوية كما تفعل كثير من الأقطار، بل تشترط أن يكون المتقدم لدراسة الطب فيها قد حصل أولاً على شهادة البكالوريوس في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية أو ما نسمّيه أحياناً بالعلوم النظرية. وذلك لأنهم أرادوا أن يثروا العاطفة البشرية ويعمّقوا الروح الإنسانية عند أولئك الذين ستوكل إليهم معالجة أبدان البشر.

أفبعد هذا يوجد في شبابنا من يفصل بين أجزاء العلم، فيتعصب لفن ضد آخر، ويقول بأن هذا قديم وذاك حديث، أو بأن هذا علم مفيد وذاك مضيعة للوقت؟ إن المعيار الذي يقيس به هؤلاء نفع علم من العلوم هو مبلغ ما يدرّه من كسب مادي، ومقدار ما يقدمه لحياة الإنسان من أشياء ظاهرة محسوسة، وما خلق الإنسان عرضاً بدون جوهر، ولا أُوجد جسداً بدون روح.

ومن عجب أن الأمم التي تقدمت في مجال العلم الطبيعي هي نفسها التي ارتقت آدابها ونال مفكّروها أعلى

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الجوائز العالمية التي خصصت للدراسات الإنسانية، أما الأمم التي تخلفت في ميدان العلم الطبيعي التطبيقي فهي تلك التي ضعفت آدابها وضحلت فيها دراسات الفكر. فالتقدم الحضاري يشمل الإبداع في كل ناحية من نواحي الإنسان، ويورث سعة الأفق التي تجعل الفرد يسعى جاهداً للإسهام الأصيل في كل ميدان من ميادين المعرفة.

ومن الغريب أنك لو ذهبت إلى جامعة عربية لوجدت دارسي اللغة العربية وأدبها أقل الطوائف عدداً، ولو سألت فريقاً من هؤلاء الطلاب لعلمت أنهم اختاروا الدراسات الأدبية والفكرية لأنهم ظنّوها أسهل من العلوم الطبيعية والتطبيقية. وما هكذا الأمر عند أصحاب الحضارة الحديثة، إذ لو ذهبت إلى جامعة إنجليزية أو أمريكية مثلاً لوجدت صفوف اللغة الإنجليزية وأدبها غاصة بالطلاب، ولرأيت أن هؤلاء لم يتّجهوا إلى هذه الدراسات لأن أبواب العلوم الرياضية أو الفيزيائية قد أغلقت أمامهم، بل لأنهم استجابوا لميل في نفوسهم، وأرادوا تنمية قدرات ومواهب برزت فيهم.

إني لا أريد هنا أن أصد عن العلوم الطبيعية، ولا أنادي بأن يتّجه عدد كبير من الناس إلى التخصص في العلوم الإنسانية، ولكني على العكس من ذلك أدعو إلى أن ينصرف أكبر قدر من الناس إلى دراسة العلوم الطبيعية والتطبيقية، وأنادي بألّا يوجّه إلى التخصص في الأدب واللغة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

والدراسات الإنسانية الأخرى إلا عدد قليل من الطلاب. ولكن يجب ألّا يكون هذا العدد البقية الباقية ممن أقفلت دونهم أبواب الدراسات الطبيعية، بل يكون ممن اختار الدراسات الإنسانية لرغبة فيها، واتجّه إليها لميل ملحّ نحوَها.

وإذا كانت فروع المعرفة البشرية متساوية في حاجتها إلى الموهوبين، فإن ميدان الأدب والفكر أحوج هذه العلوم إلى من وهبوا ملكة الإبداع الفني، والقدرة على التأمل الذهني. وليس المجتمع في حاجة إلى كثرة فيمن ينتمون إلى عالم الأدب والفكر، ولكنه محتاج إلى الأديب المبدع والمفكّر الأصيل. إن اصطفاء دارسي الأدب والعلوم الإنسانية الأخرى أمر ضروري، ذلك لأن دارس الهندسة ــ مثلاً ــ يستطيع أن يصبح مساعد مهندس إذا لم يتقن فن الهندسة، ولكن من لا يبرع في الدراسات الأدبية والفكرية لا يكون مساعد أديب أو معاون مفكر، فعالم الأدب والفكر يختلف عن دنيا الهندسة التي تحتاج إلى المهندس الماهر وإلى فئات أخرى من الناس ممن تتفاوت حظوظهم في علم الهندسة وتتباين مقدرتهم فيه.

إن النظرة المقدّرة لكل ناحية من نواحي النشاط الإنساني أمارة من أمارات سعة الأفق، وإن المجتمع الذي ينظر إلى جوهر الأشياء فلا يفضّل مهندساً على أديب، ولا يعلي من شأن كيميائي ويخفض قدر مفكّر، مجتمع شبّ

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

عن طور التقليد، وخرج من نطاق التعلق بمظاهر الأشياء وبريق الأسماء. فليس في ميدان المعرفة علم قديم وعلم حديث، وليس في دنيا الحضارة علم ثانوي وعلم رئيسي. بل إن كل جوانب المعرفة البشرية متساوية من حيث أهميتها، ومتعادلة من حيث حاجة الناس إليها، ذلك لأن كل فرع من فروع المعرفة قد وكّل بناحية من نواحي الإنسان. وإذا كان الناس يرون أحياناً من ينتمي إلى الأدب فيلهو بفارغ القول، ويلغو بخواء الكلام فليس ذلك بعيب الأدب، فقد ابتلي كل علم بالمدّعين، وأصيبت كل حرفة بالمتطفلين. فكم في دنيا الطب من متطببين، وكم في عالم الهندسة من مهندسين لا يجيدون سوى إقامة المباني التي سرعان ما تنقضّ على رؤوس الساكنين. وما العبرة في كل مجال من هذه المجالات إلا بأولئك الذين علموا الصنعة فحذقوها، وعرفوا العلم فبرعوا فيه.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الأسلوب الصحفي

لا يستطيع المرء أن ينكر ما لوسائل الإعلام الحديثة من صحافة وإذاعة وتلفزة من فضل على نشر اللغة العربية الفصحى وتقريب مسافة الاختلاف بينها وبين العامية. ولكن من الجور على اللغة العربية أن يتحدث البعض أحياناً عما يسمى باللغة الصحفية الإعلامية كما لو كانت شيئاً آخر يختلف عن اللغة العربية الفصحى، أو كائناً لغوياً يحاول أن يصبح عوضاً عنها. وقد يكون لهؤلاء شيء من العذر لو كانت الفصحى مقصورة على الأسلوب الأدبي، ولكن ما عذرهم وفيها من تعدد الأساليب بمقدار ما في الحياة من تعدد للأحوال وتنوع في الأغراض؟

وليست الصحيفة الحديثة في حقيقة أمرها سوى مزيج من الأخبار وموضوعات الفكر والعلم والأدب، فهي مضطرة إلى أن تستخدم ما في اللغة الفصحى من أسلوب أخباري حين تنقل الأخبار، وهي محتاجة إلى أن تتخذ الأساليب

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

العلمية والأدبية حين تنشر ما يتصل بالفكر والعلم والأدب، ولذلك فإن الصحافة ليست خصمًا للغة الفصحى، ولكنها ربيبتها التي تترعرع بين أحضانها وتحاكي أساليبها وتستمد من ينبوعها، فتحسن في ذلك حيناً، وتسيء حيناً آخر. وإذا ما فشلت الصحافة في محاكاة أساليب اللغة الفصحى فإنها لا تجني على الفصحى، بل تكون كبراقش التي جنت على نفسها! إذ تبقى الفصحى صامدة كالطود، عميقة كالبحر، ولكن تكون الصحافة حينئذ قد رضيت أن تضع نفسها موضع الخطيب الحصر اللجلاج، وادعت القدرة على التعبير وهي مصابة بالعي والفأفأة والتمتمة. وما مثل اللغة الفصحى حين تخرج الصحافة على طرقها وأساليبها إلّا كمثل المعلم المخلص الذي لا يعيبه خمول التلميذ وفشله.

إذا وضحت هذه الحقيقة فإنه يجب ألا ينساق العاملون في الصحافة وراء مفاهيم غامضة حينما يتحدثون عن لغة الخبر الصحفي وصياغته، فالصحفي الذي يخاطب الجمهور من خلال أعمدة الصحيفة ليس سوى كاتب يتخذ من اللغة الفصحى عدته، ويعتبرها لسانه الذي ينطق به، ومداده الذي يصوغ منه أحرفه. فجدير بالكاتب الصحفي أن يدرك هذه الحقيقة دائمًا، وأن يعيها في كل حين، ففي اللغة الفصحى أنماط وأساليب يتخذ منها الكاتب الصحفي أو الأديب ما يلائم غرضه ويطابق مقتضى الحال الذي عرض

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

له. وما قال قائل بأنه يجب على الصحفي أن يتأنق في لغته أو يستخدم أسلوباً أدبياً شعرياً حينما يصوغ خبراً من الأخبار، أو يجري تحقيقاً صحفياً، بل لو فعل ذلك لعد عمله خطأ من الناحية البلاغية التي تقتضي أن يكون لكل مقام مقال، ولكل حال أسلوب. فاللغة الفصحى عامرة بالأساليب التقريرية والموضوعية، حافلة بطرق التعبير التي تتسم بالإيجاز والتركيز، وما على الكاتب الصحفي إلاّ أن يدنو منها ليغترف من ينبوعها، ولكن التذرع باللغة الصحفية الخبرية السريعة لكي تكون ستاراً يخفي تهاون الصحفي أو يبرر جهله بقواعد اللغة أمر خاطىء في معيار القيم الفكرية.

وتختلف وظيفة الصحافة في البلدان الحديثة في النمو عن وظيفتها في تلك الأقطار التي تطورت ونمت. فهي في الأولى مدرسة لتثقيف الناس ونشر الوعي بينهم. وهي ليست مجرد وسيلة لبث الأخبار ولكنها معرض لشؤون الفكر والثقافة والعلم والأدب. ومن الواضح أن هذه الموضوعات لا تعالج بأسلوب أخباري برقي سريع، ولكنها تحتاج إلى رصانة الفكر ودقة اللغة وتركيزها. ويبدو أن الحديث عن أهمية الخبر وسرعته وأسلوبه الخاص في صحف البلدان الحديثة في النمو أمر لا يخلو من المبالغة ذلك لأن ما تنشره هذه الصحف من أخبار خارجية إنما هو زاد زودتها به وكالات الأنباء العالمية، وهو لا يختلف كثيراً عما تذيعه محطات الإذاعة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ولا سيما تلك التي تتابع سرعة الخبر وتهتم بتفاصيله. ويبقى لصحف البلدان الحديثة في النمو بعد هذا جانب أخباري واحد لا ينافسها فيه منافس ألا وهو الخبر المحلي، وهو جانب لا أحسبه من الأهمية بحيث يسمح لأسلوبه السريع أن يطغى على ما في الجريدة من مواد صحفية وفكرية أخرى.

فليكتب الصحفي بأيّ أسلوب شاء، وليسرع حيناً أو يتأن حيناً آخر، ولكن عليه أن يقنع القاريء بأنه قد امتلك ناصية اللغة، وأنه لا يجهل أسس النحو ومبادئه الرئيسة. فالقدرة التعبيرية عند الكاتب البارع ليست تشدقاً بالمهجور من الكلمات، ولا تكلفاً للمكرر من الصور الشعرية والخطابية، ولكنها تمرس بأنواع القول، ودربة تمكنه من أن يختار لكل موضوع ما يلائمه من الأساليب. وإذا رزق الصحفي قدرة كهذه فإنه يستطيع أن يميز الغث من السمين، وأن يوجز في القول ويركزه، وأن يريح قراءه من مثل ذلك الهذر واللغو الذي تمتلىء به صفحات الفن والرياضة والاجتماع في بعض الصحف. كما أن الصحفي الأخباري العارف باللغة سيربأ بصحيفته عن أن تخرج على الناس وقد ازدانت صفحتها الأولى بعناوين رئيسة رفع فيها المنصوب ونصب المرفوع!

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

اللغة العربية والحداثة

يرى بعض كتاب النثر الشعري أن الحياة العربية الجديدة تتطلب من الشاعر لغة جديدة تخالف تلك اللغة التي استخدمها أبو تمام والمتنبي، ويرون كذلك أن تراث الأمة العربية ليس في لغتها ولكنه يكمن في أشياء أخرى من مكونات بيئتها. ولو كان هذا الرأي مقصوراً على فن الشعر لما حفل المرء بالنقاش، فليس الشعر من قبل ومن بعد سوى نافلة من نوافل القول، ولكنه تجاوز الشعر وتعرض لقضية أخرى أخطر منه تلك هي قضية اللغة العربية وتراثها الفكري.

وإن من السذاجة أن يتباكى المرء على الشعر حين تنقص تفعيلة من تفعيلاته ويفقد طرفاً من أطرافه، أو يحصر النقاش في الموازنة بينه وبين النثر من حيث حريته وتقييده، فليست المسألة مناظرة بين الشعر والنثر، ولا مفاضلة بينهما، إذ أن الشعر مهما علا في قدره فإنه لا يداني في نظر الأمة منزلة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

النثر الذي هو خزانة عقيدتها وفكرها وحضارتها، ولكن من الواجب على الكاتب أن يُعدِّي عن هذا وأن يناقش ما يهدف بعض أنصار النثر الشعري إلى إثارته من شكوك حول قيمة اللغة العربية العريقة في مجال التراث الفكري للأمة، وحول قدرتها على التفاعل مع أحداث العصر.

إنّ اللغة وحدها خزانة تراث الأمة ووعاء فكرها وتاريخها وتقاليدها. فاللغة أهم عنصر من العناصر في شخصية الأمة، وهي ليست وليدة حقبة من الحقب، ولكنها نتاج العصور ماضيها وحاضرها، فهي ليست من ابتداع امرىء القيس في الزمن القديم، ولا من ابتكار المتنبي في العصر الوسيط، وليست من صنع السياب في الزمن الحديث، ولكنها كائن حي عايش هؤلاء وتكيّف مع أزمانهم ثم خلد من بعدهم.

وقد ابتليت اللغة العربية بمن حاولوا بث الفوضى في فنونها، والتشكيك في بنائها وتراكيبها، وتصويرها للناشئة رمزاً للقدم والتخلف. وحين يأتي هؤلاء ليقولوا لشداة الأدب ــ الذين يخلب الجديد عقولهم، ويستهوي الطاريء أفئدتهم ــ بأن هذه اللغة خلقت لزمن غير زمنكم، وأنه قد كتب بها أناس لم يعيشوا في عصركم فإنهم إنما يريدون أن يجتثوا شجرة مباركة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وذلك ليزرعوا في مكانها نبتاً طفيلياً لا نماء فيه.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ولم تؤخذ اللغة العربية عن امرىء القيس أو المتنبي أو السياب، ولكنها أُخذت عن العقل العربي الذي وجه الأمة العربية في جميع عصورها. وإذا كانت هذه اللغة لم تؤخذ عن واحد من هؤلاء الذين كانوا أئمة في البيان، فكيف يريد بعض كتاب النثر الشعري من الأدباء أن يأخذوا اللغة عمن لم يحذق أساليبها، ولم يتمرس في فنونها، ولم يعرف من ألوان الكتابة سوى ذلك النثر الشعري الذي يرسف في أغلال المحسنات السريالية الوجودية ويُكشف فيه عن السوءات الفرويدية.

وإن من الطبيعي أن يميل إلى هذه الدعوة البعض ممن لا يصبرون على التعلم، ولا يؤمنون بأن أبواب الفنون قد حفت كغيرها من الصنائع بدروب طويلة من المشقة والعناء، فهي تدعو إلى طريقة تجعل من يتبعها ينفصم عن الواقع، ويعيش في الوهم، فيخيل إليه أنه قد أصبح أديباً حين خط بضعة أسطر لا شعورية، ووشاها بكلمات حسية تنم عن التمرد على الأخلاق، وتدل على خلع العذار. والحق أن هذه الطريقة سهلة ميسرة مادام أنها لا تلزم قائل الشعر بفكر أخلاقي أصيل، ولغة سامية عفيفة وأسلوب موسيقي جميل. ولكنها تشبه تلك الطريقة التي يلجأ إليها تجار تعليم اللغات الأجنبية حين يزعمون أن لهم من الكتب ما يعلم الفرنسية أو الانجليزية في بضعة أيام.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وتتخذ هذه الطريقة في دعوتها زي الحداثة والجدة والروح العصري، وهذه كلها معاني حق أريد بها باطل، فليست هذه المعاني مما يضاد التراث الأصيل ويناقضه، بل إنها مرتبطة به ومنطلقة من ميدانه. وتحتاج الأمم ولا سيما في فترات ضعفها ــ وأمة العرب المعاصرة ضعيفة في فكرها ــ إلى التمسك بالأصيل من تراثها، والحفاظ على مقومات شخصيتها، وذلك لئلا تقتلعها رياح الحضارات الغالبة. ومن قبل أراد الاستعمار الفرنسي للجزائريين أن يتخذوا اللغة الفرنسية لغة لهم، وأن يكون الفكر الفرنسي تراثهم، ولو أن الجزائريين أطاعوا حينئذ المستغربين فيهم، واستجابوا للمنادين بكلمات التحضر والمعاصرة لفني الشعب الجزائري، وأصبح طوائف متعددة مستعبدة، ولكنهم نبذوا دعاة الاستغراب، وتمسكوا بعقيدتهم ولغتهم، فخرجت الجزائر المعاصرة قوية في شخصيتها، أصيلة في فكرها، ثابتة الخطو في تحضرها وتمدنها.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

حوار أدبي

□ مسار الدكتور الشامخ الأدبي بين هواية الأدب وحرفته؟

أراك تسعى إلى إطراب المخاطبين بمثل هذه الألقاب الجامعية والإدارية، ولا أجد ما أقوله في هذا الموقف إلا أن أردد ما قاله البارودي لأحد ملقّبيه:

حبوتك ألقاب العلا فادعني باسمي

فما تخفض الألقاب حراً ولا تسمي

ثم إن من نعم الله علي أنني لم أصب بحرفة الأدب، ولو أصابتني هذه الحرفة لوجدتني شريداً تتقاذفه بيوت المؤجرين!

أما هواية الأدب فما أنا إلا نبت صحراوي غذته ربى

(*) أجاب المؤلف في هذا الحوار عن عدد من الأسئلة التي وجّهها إليه المحرر الأدبي في جريدة الرياض عام ١٣٩٥ هـ.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

عنيزة، وتعهّده أستاذ الجيل في عنيزة الشاعر صالح الناصر بن صالح ــ رحمه الله ــ بالرعاية والتوجيه.

□ ما موقعك بين إبداع الفنان وتنظير الناقد؟

موقعي يبعد عن إبداع الفنان بمقدار ما تبعد مدينة الرياض عن المساهمة العقارية الكائنة في الكيل التاسع والثلاثين من طريق ديراب.

□ الحالة الاجتماعية؟

أعيش في بيئة منزلية تتكوّن من عائلة صغيرة وخمسة مؤلفات ومكتبة.

□ من خلال دراستك للأدب السعودي ما هو تقويمك لحركة الأدب في بلادنا؟

لو حاولت الإجابة عن هذا السؤال الكبير فلا شك أني سأقع في خطأ التعميم، ولكن من الملاحظ أن الحياة الأدبية في بلادنا قد انتعشت منذ حوالي أربعين عاماً على أيدي أولئك الرواد الذين أخلصوا للأدب وتفرّغوا له، ولكن بعضهم وقف عند حد معين من المستوى الأدبي، كما أن عدداً

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

منهم ما لبث أن انصرف إلى شؤون الحياة وصار لا يتعاطى الأدب إلا لماماً. وهكذا مرت السنوات وتطورت البلاد من حيث النواحي العلمية والاقتصادية والاجتماعية، ولكن الأدب لم يواكب هذا التطور بل ظلّ على ما كان عليه قبل ربع قرن أو يزيد. وربما أصابه شيء من التغيّر في الشكل والمضمون، ولكن المستوى الفني الإبداعي لم يتغير، فقد انصرف ذوو المواهب الفنية والفكرية إلى شؤون الحياة العامة، وصار الأدب وقفاً على الهواة الذين أخذوا يمارسونه عاماً ويتركونه أعواماً.

وقد يصح القول بأن أدبنا قد تطوّر إذا ما قارنّا إنتاج الحاضر بما كان ينتجه أدباؤنا في أوائل هذا القرن، ولكن مما لا شك فيه أن أدبنا قد تخلّف عن المستوى العلمي والفكري الذي تعيشه البلاد الآن، فليس لدينا اليوم أدباء متطوّرون يماثلون من حيث المستوى الحضاري ما في بلادنا من أطباء ومهندسين ومعلمين واقتصاديين وباحثين.

□ مَن من أدبائنا الشباب أثار غريزتك النقدية وأنت تقرأ في إنتاج الشباب الأدبي المتعدد؟

أحب أن أعترف بأن قراءتي لإنتاج الشباب محدودة، وليس ذلك بسبب تعلّقي بعريق الأدب وأصيله، ولكن لأني

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

كلما حاولت قراءة ما ينتجه بعض أدباء الشباب رأيت شخصيات أساتذتهم كخليل حاوي والخال والسياب وصلاح عبد الصبور ونزار قباني تلوح بارزة من خلال السطور. وليس المهم في نظر النقد أن يتخذ الأديب المعاصر قالباً قديماً أو حديثاً أو أن يمزج بينهما، ولكن من الضروري أن يصوّر إنتاجه روحه وفكره ومشاعره، وألّا يكون صورة «كربونية» من أديب آخر سواء كان هذا الأديب من القدماء أو المحدثين.

□ حتى الآن الحركة النقدية في بلادنا ضعيفة فما هي الأسباب وراء ضعفها؟ هل هي ضعف الثقافة الأدبية في نقّادنا، أم سبب ذلك يرجع إلى الضعف الفني في إبداعنا؟

لقد أشرت في سؤالك إلى شيء من الحقيقة التي تكمن وراء ضعف الحركة النقدية في أدبنا، وقد أضيف إلى ذلك سببين من أسباب تخاذل النقد الأدبي وتشرنقه، أما الأول فهو أن الناس في بلادنا أصبحوا لا يكترثون بالحياة الأدبية، فسواء عليهم أأنتعشت أم خمدت. وثانيهما أن الأدباء قد أدمنوا تعاطي كلمات الإطراء والتقريظ، ولذلك يجد الناقد أحياناً أن عليه إذا ما أراد أن ينقد نقداً صادقاً ويقوّم تقويماً أميناً أن يُعِد عُدَّةَ المحارب ويلبس لأمَته.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

□ أساتذة الجامعة هل أدّوا دورهم الثقافي والأدبي تجاه الحركة الأدبية في بلادنا؟

أراك تريد بسؤالك هذا أن تُشعر أساتذة الجامعات بتأنيب الضمير. وحسبي إجابة عن هذا السؤال أن أقول لك: إسأل رفوف المكتبات وأعمدة المجلات والصحف فعندها الخبر اليقين.

□ بين الأداء الفني ووجود الجو الأدبي علاقة تفاعلية ثمرتها انتعاش الإنتاج الأدبي أو خفوته، فما مدى انطباق هذا القول على أدبنا:

قولك هذا فيه الجواب المركّز الشافي الكافي ولو استسلمت لأسئلتك السقراطية لما تجاوز عملي عمل الشرّاح الذين أُغرموا في الماضي بإفساد النصوص الجامعة المانعة وتشويهها.

□ وماذا عن الحياة الفكرية في مجتمعنا الجديد؟

ليس الفكر بأسعد حالاً من الأدب فهو يعاني مثله من إهمال المجتمع وعدم اهتمامه، فقد أخذ الفرد عندنا يتحوّل إلى إنسان مادي يغرق في أوهام المال، ويفتن ببريق السيارات وأبواقها! أما الفكر فقد ولّى منهزماً، يخاف أن يجرفه تيار المادة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أو تسحقه عجلات السيارات. وليس يخشى على الكهول من جيل المساهمين والمستثمرين العقاريين من الضياع، ذلك لأنه مـازالت فيهم بقية من القيم الـدينية والإنسـانية، ولكنما يخـشاه المـرء هو أن توجد هذه النزعة المادية جيلاً جديداً مترفاً مدللاً لا يحسن إلا تمشيط القذال، وتفحيط السيارات وصرصرة عجلاتها. وسيكون حظ المجتمع كبيراً إن لم يصب شبابه بعدئذ بمظاهر العنف والضياع.

وإن من واجب المفكّـرين والأدباء أن يـذكّروا ابن الجزيرة العربية بأن ثروته الحقيقية ليست في نفطه، ولكنها تكمن في تلك المثل الدينية والقيم الإنسانية والأخلاقية التي ورثها كابراً عن كابر، ورعاها قرناً بعد قرن! وحري بابن الصحراء ــ الذي لم يستعبده المال في فترة من فترات حياته ــ أن يدرك بأن المثل الدينية والقيم الفكرية والعلمية خـير ما يعصمه ويعصم أبناءه من أن يصيبهم تيار المال الجارف بالانهيار والضياع.

□ هل استوعب أدبنا قضايا الناس وعبّر عن مشاكلهم تعبيراً فنياً؟

أدبنـا مازال في معـظمه حـائراً بـين أنين المـاضي ورومانسيته، وسريالية الحاضر وتكعيبيته وعبثه، وإذا ما حاول أن يعبّر عن قضايا الناس عالج هذه القضايا معالجة صحفية

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

تقريرية تتّسم بالسرعة وتفتقد الروح الفنية. ولكن هناك فئة قليلة من الأدباء تتناول قضايا الحياة الحاضرة بروح فنية واعية.

□ حينما نفتح كتاب الأدب في الوطن العربي هل نجد صفحة خاصة بأدبنا؟

في الحقيقة أننا لا نجد إلا أسطراً تقليدية فاترة تعوّد الكتّاب العرب على أن يتناقلوها ليوهموا قرّاءهم بأنهم إنما كتبوا عن الأدب في الوطن العربي جميعه، ولكنهم في الواقع لم يكتبوا إلا عن قطر أو قطرين من أجزاء وطننا العربي الواسع الشاسع. وإذا كنا نلوم مثل هؤلاء المؤلفين على إقليميتهم وضيق آفاقهم فإنه يحسن بنا ألّا ننسى بأن اللوم الأكبر إنما يقع علينا نحن، إذ مازال صوتنا الأدبي والفكري يُعتبر أخفت الأصوات، وذلك لضعف وسائل نشر المؤلفات السعودية وتوزيعها. فعندما يولد الكتاب في بلادنا فإما أن يموت ساعة ولادته، وإما أن يصاب بالكساح فلا يستطيع الحراك، ولا يقدر على التنقّل ما بين مكتبة وأخرى.

وإذا ما أُريدَ للأدب والفكر أن يزدهرا في حياتنا فإنه يحسن بنا أن نستفيد من تجارب بعض أشقائنا الذين أنشأوا مؤسسات للنشر والتوزيع استطاعت أن تجعل رفوف المكتبات في بلادنا وقفاً على إنتاج أبنائها.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

□ **بعض الكتّاب العرب المحدثين يقولون بأن الشعر العربي الأصيل مازال موجوداً في الجزيرة العربية، وهو بلا شك رأي مستمد من آراء عميد الأدب العربي الراحل طه حسين في أدب الجزيرة العربية المعاصر. فما رأيك في هذا القول؟**

هذا رأي عاطفي أوحت به إلى أصحابه عوامل كثيرة منها:

١ ــ الحرص على إشاعة الرضا في أنفسنا وإغرائنا بأن نحسن الظن بقدراتنا الأدبية ومواهبنا.

٢ ــ الحنين إلى ماضي الجزيرة العربية واتخّاذنا رمزاً له.

٣ ــ محاولة تشجيعنا والأخذ بأيدينا برفق حتى نتجاوز مرحلة الطفولة الأدبية بسلام.

□ **دعنا نعد إلى الحديث عن أستاذ الجامعة بين العمل الإداري والبحث العلمي، فهل داعب العمل الإداري خيالك الاجتماعي؟**

إني لأضِنّ بمرحلة الكهولة أن تضيع في عالم الرتابة الوظيفية. وقد أداعب العمل الإداري في مرحلة الشيخوخة إن مدّ الله في العمر.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

□ وهل يصبر الباحث على بحثه في مجتمع وظيفي مادي؟

التقيت مرة بصديق قديم في ناد من نوادي الرياض الليلية التي كان يؤمّها الناس لاصطياد أقراص الخبز الآلية، وإذ كانت المناكب تتزاحم والأيدي تتعارك لتتناوش كل قرص يطلّ من كوة الخبّاز، فقد انتحينا إلى ركن من أركان المخبز حتى يهدأ العراك. وبما أن هذا الصديق لم يرني منذ أمد بعيد فقد سألني عمّا وصلت إليه في سلّم الوظيفة، وحين أخبرته بأني مازلت أعمل في حقل التدريس رشقني بنظرة رثاء وإشفاق، وأخذ يوصيني بمزيد من النشاط الاجتماعي حتى لا يفوتني المركب الذي أخذ في المسير، وحتى أصبح في يوم من الأيام مديراً عاماً للإدارة في كلية الآداب!

ولم أجب هذا الصديق، ذلك لأنه لم يكن إلا واحداً من تلك الكثرة التي لا تقدّر طالب العلم إلا إذا أصبح كائناً إدارياً موقّعاً، ولكني أدركت عمق المأساة التي يعيشها العلماء الباحثون في بلادنا ممن تجافوا عن عرض الدنيا ووهبوا أنفسهم للعلم والبحث.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

□ علمنا أخيراً بأنك قد صرت ذا مسؤولية إدارية محدودة في قسم اللغة العربية، فمن مثلك الأعلى في العمل الإداري؟

مَثَلي الأعلى في هذا الشأن هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذي لم يمكث في المنصب الإداري حين أسند إليه المأمون ديوان الرسائل سوى ثلاثة أيام ولىّ بعدها هارباً ولم يعقب إلا على مكتبات الورّاقين!

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

دراسات

مدونة

محمد عبدالرحمن الشامخ

مسيرتنا الصحفية
خلال نصف قرن

□ مقدمة تاريخية:

عندما أهل القرن العشرون كانت الأجزاء التي تتكون منها المملكة العربية السعودية مقسمة إلى عدد من الإمارات المتفرقة، فكانت نجد في يد الملك عبد العزيز آل سعود، وكانت حائل تابعة لآل الرشيد، أما منطقتا الحجاز والاحساء فكانتا خاضعتين للدولة العثمانية. وكانت تتنازع عسير وتهامة أيدي العثمانيين والأدارسة. وفي عام ١٩١٦ استخلص الحسين بن علي ولاية الحجاز لنفسه، وانتزعها من أيدي العثمانيين.

ولكن هذه الأجزاء من جزيرة العرب ما لبثت أن توحدت خلال العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، فانضمت الأحساء إلى نجد سنة ١٩١٣. وفي عام ١٩٢١ انضمت حائل وعسير إلى هاتين المنطقتين. ولم يأت عام ١٩٢٤ إلا وقد أصبح الحجاز جزءاً من هذا الكيان الموحد.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وفي سنة ١٩٣٢ رأى أهل هذه البلاد أن يطلقوا على وطنهم اسم المملكة العربية السعودية ليكون هذا الاسم رمزاً لوحدتهم، وإيذاناً بانقضاء عهد الفرقة الذي كان قد حل بهم.

وفي الحقيقة أن ما أصيبت به هذه الأجزاء من جزيرة العرب في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من فرقة وعدم استقرار قد جعل حياتها العلمية ضعيفة في الانتشار، مقصورة على عدد من الأفراد. ولو لم يكن لدى بعض الناس حينئذ شعور بواجبهم نحو دراسة دينهم ولغتهم لسادت الأمية، وعادت البلاد إلى عصور الجهالة. ولكن أمانة العلم التي حملها نفر من العلماء المخلصين في أرجاء البلاد قد أبقت على وميض من نور العلم، وأضاءت المشاعل التي اهتدى بها السُّراة في بعض جنبات الصحراء. ولذلك وجدت في الحرمين الشريفين وفي مساجد نجد والأحساء وعسير وتهامة بيئات علمية وحلقات دراسية لم تكن كثيرة العدد، ولكنها كانت مباركة النتاج، وكان من الطبيعي في ظل هذه الحياة العلمية المحدودة أن ينتمي معظم من يشتغلون بالكتابة أو يهتمون بالأدب إلى هذه المراكز العلمية.

وما دام الحفاظ على الدين واللغة العربية هو الهدف الذي أبقى على العلم في هذه الأجزاء من جزيرة العرب، فلا بدع إن كانت الأماكن المقدسة ــ بفضل حرميها الشريفين ــ

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أكثر هذه الأجزاء صلة بالعلم، وأقلها حرماناً من وسائل الثقافة. فقد كان الحرمان الشريفان يحفلان في هذه الفترة بالعلماء والمتعلمين، كما أن مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة قد حظيت عند مطلع القرن العشرين بإنشاء عدد من المدارس الأهلية مثل المدرستين الصولتية والخيرية بمكة ومدرستي الفلاح بمكة وجدة، وبعض المدارس الرشدية التي افتتحتها الحكومة العثمانية في كل من مكة والمدينة وجدة والطائف.

وإذا كانت هذه المدارس لم تؤت ثمارها خلال السنوات الأولى من إنشائها، فإنها قد أسهمت في تخريج نفر من العلماء والأدباء الذين شاركوا في الحياة العلمية والأدبية والصحفية التي شهدتها البلاد بعد توحدها في العقد الثالث من هذا القرن.

□ تأسيس المطبعة الرسمية:

قامت الحكومة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر بإنشاء عدد من الصحف الرسمية في الولايات العربية التابعة لها، ولكن ولاية الحجاز لم تحظ من العثمانيين حينئذ إلا بمطبعة حكومية هي مطبعة الولاية التي أنشأها الوالي عثمان نوري باشا في سنة ١٨٨٣، وكانت مطبعة يدوية صغيرة قامت بطبع التقويم الرسمي المسمى بسالنامة ولاية

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الحجاز، كما قامت بطبع عدد من المؤلفات الدينية والتاريخية واللغوية. وقد ظلت هذه المطبعة وحدها في ميدان الطباعة بهذه البلاد مدة تزيد على ربع قرن.

المرحلة الأولى

□ ظهور أول صحيفة:

مرت الصحافة المحلية في نشأتها بمرحلتين، أما المرحلة الأولى فهي تلك المحاولات الصحفية التي سبقت توحيد البلاد، وأما المرحلة الثانية فهي ذلك الطور الذي مرت به هذه الصحافة بعد توحيد المملكة في عام ١٩٢٤.

ولم تعرف هذه البلاد الصحافة إلا بعد إعلان الدستور العثماني في عام ١٩٠٨، إذ أنشئت في ولاية الحجاز حينئذ صحيفة رسمية هي جريدة «حجاز» التي صدرت في ٣ / ١١ / ١٩٠٨، ومما ساعد على ظهور هذه الجريدة وجود مطبعة الولاية التي كانت قد أسست من قبل. وكانت جريدة «حجاز» تتألف من أربع صفحات وتحرر باللغتين العربية والتركية. ويتكون معظم موادها من الأخبار والمقالات المنوعة والإعلانات الرسمية. وتشمل الأخبار أنباء الولاية والحكومة العثمانية، وبعض التقارير السياسية العالمية التي كانت تصطبغ بوجهة نظر الحكومة التركية. ولم تكن الدعاية

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

والأخبار الحربية تشغل في البداية سوى حيز محدود من أعمدة الجريدة، ولكن هذه الموضوعات قد أصبحت من أهم ما يشغلها بعد غزو إيطاليا لطرابلس الغرب في سنة ١٩١١ وبعد قيام الحرب العالمية الأولى.

وليس من السهل أن يعرف مدى انتشار هذه الجريدة أو كمية توزيعها، فقد كان المحرر في بعض الأحيان مغتبطاً برواجها، ولكنه بدا في أحيان أخرى شاكياً من تضعضع حال الجريدة وتأخر المشتركين عن دفع اشتراكاتهم[1]. ويبدو أن رواج جريدة «حجاز» وإقبال الناس على قراءتها لم يكن يتم إلا في ظروف معينة مثل المناسبة التي صدرت فيها لأول مرة، والأوقات التي كانت تحدث فيها الحروب والأزمات السياسية.

وبما أن معظم محرري الجريدة كانوا من بين الأتراك، فقد كانت موادها الصحفية تحرر بأسلوب ركيك ساده الغموض، وكثرت فيه الأخطاء اللغوية والنحوية. ومما يمثل هذا النوع من التحرير الصحفي هذه الفقرة التي وردت في كلمة نشرتها الجريدة لتبين ما تعرضت له من مصاعب مطبعية، قال المحرر:

«كلمات زهيدة بحق مطبعتنا مطبعة ولاية الحجاز

---

(١) انظر جريدة حجاز، عدد ٢ في ١٩٠٨/١١/١٠، وعدد ١٠٢ في ١٩١٢/٥/٢٣.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الجليلة ليس من الممكن إنكار حال وجودية مطبعة ولايتنا الجليلة لأن كونها في حالة توجب اضمحلالها، فتأسفنا من ذلك ونظن أن ذلك حصل بسبب مأمورينها وعدم تنظيم معاملاتها أوجبت تأخير زيادة منافعها وتركتها إلى هذه الحالة مع كون مطبعتنا هي مطبعة مهمة مكملة، والذي أخرها إلى هذه الحالة عدم الالتفات، وتناقص الحروف وسوء استعمال حساباتها ومعاملاتها، وبذلك حصل عكس شؤون الولاية بعدم انتشار الجريدة الحجازية وصرنا محرومين من انتشارها جملة أشهر»[1].

ولم تذكر الجريدة اسم رئيس تحريرها، ولكنه قد أشير فيها إلى أن أمور التحرير منوطة بأمين سر الولاية التركي الذي كان حينئذ أبا الثريا سامي. وكانت تنشر ما بين حين وآخر مقالات موقعة بأسماء كتاب يبدو أن معظمهم كانوا من بين الموظفين الأتراك مثل أحمد عزمي ومحمد صادق وم. راغب وحافظ محجوب، ولكن ظهرت في الجريدة أسماء عدد قليل من الكتاب المحليين مثل عبد الملك خطيب ومحمود عزيز شلهوب.

ورغم ما في الأسلوب الذي كانت تحرر به معظم مواد جريدة «حجاز» من عيوب لغوية، فإنها قد نشرت عدداً من

---

(١) المصدر نفسه، عدد ١٠٢ في ٢٣ ـ ٥ ـ ١٩١٢.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الافتتاحيات والمقالات الفصيحة التي كانت تنعى على البلاد تأخرها، وتدعو بحرارة إلى إصلاح أمرها، وتناشد المواطنين أن يعيدوا ماضيهم المجيد ويلحقوا بركب الحضارة والمدنية. ولا ريب في أنه قد كان لمثل هذه المقالات التي تعالج شؤون الولاية من النواحي الاجتماعية والتعليمية والأدبية أثر في إيقاظ المواطنين، وبث المفاهيم الحديثة بينهم. ولم تكن جريدة «حجاز» مجرد جريدة رسمية، إذ كانت تناقش شؤون الولاية، وتحاول معالجة مشاكلها، وقد مهدت الطريق بهذا لما أتى بعدها من صحف.

وظلت جريدة «حجاز» تنتهج هذا الأسلوب حتى انقطعت عن الصدور إبان الحرب العالمية الأولى، ولا يعرف متى احتجبت عن الظهور، ذلك لأن تاريخ آخر ما يوجد الآن من أعدادها هو ٧ ـ ٣ ـ ١٩١٥، وليس في هذا العدد ما يشير إلى أن الجريدة كانت تنوي أن تحتجب عن الصدور، ولكن من المرجح أنها قد اختفت في عام ١٩١٦، وأنها لم تصدر بعد ١٠ ـ ٧ ـ ١٩١٦، وذلك حينما انتهى الحكم التركي بمكة المكرمة.

□ صحف أخرى ظهرت قبل عام ١٩١٦:

ولم تكن جريدة «حجاز» الجريدة الوحيدة التي صدرت في ولاية الحجاز بعد إعلان الدستور العثماني في عام ١٩٠٨،

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

فقد ظهرت إلى جانبها خمس صحف أخرى هي: «شمس الحقيقة» و «شمس حقيقت» و «الإصلاح الحجازي» و «الرقيب» و «المدينة المنورة».

أما جريدة «شمس الحقيقة» التي صدرت بمكة المكرمة في ١٦ ـ ٢ ـ ١٩٠٩ فلم تكن صحيفة رسمية ولكنها كانت تناصر جمعية الاتحاد والترقي التركية، وكان يرأس تحريرها عبد الله قاسم الذي كان عضواً بارزاً في جمعية الاتحاد والترقي بمكة المكرمة. وقد وصفت الصحيفة نفسها بأنها: «جريدة وطنية يومية سياسية علمية انتقادية فكاهية تنشر مرة في الأسبوع مؤقتاً». وفي الحقيقة أن «شمس الحقيقة» قد بدت صادقة حين وصفت نفسها بأنها جريدة «انتقادية»، ذلك لأن الأعداد القليلة التي توجد الآن منها ليست سوى مجموعة من مقالات النقد السياسي والاجتماعي، وقد بلغ ميلها إلى النقد حداً جعلها تحيل العمود الفكاهي إلى هجاء سياسي، ولكن معظم هذا النقد الصحفي قد وجه إلى خصوم جمعية الاتحاد والترقي. وحين تعرض الشريف حسين بن علي أمير مكة لهجومها اشتكى رئيس تحريرها إلى الحكومة التركية باستانبول، وكان من جراء ذلك أن أُغلقت الجريدة ونقل رئيس تحريرها إلى وظيفة خارج ولاية الحجاز.

وكانت جريدة «شمس الحقيقة» تحرر بأسلوب ركيك يشبه ذلك الأسلوب الذي حررت به معظم مواد جريدة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

«حجاز»، ولكن لأنها لم تكن ذات صفة رسمية فقد استطاعت أن تتناول مواضيع جدلية حساسة لم يكن باستطاعة جريدة «حجاز» الرسمية أن تمسها. ورغم أن «شمس الحقيقة» لم تعمر ــ كما يبدو ــ سوى فترة قصيرة، وأن محرريها كانوا أتراكاً، فإن لها مكانة هامة في تاريخ الصحافة بهذه البلاد، إذ لا شك في أن ما كانت تنشره من آراء جريئة، وتبثه من أفكار عصرية قد أسهم في تنوير أذهان قرائها في الأماكن المقدسة وتوسيع آفاقهم، ولم تكن جريدة «شمس الحقيقة» تحرر باللغتين العربية والتركية كجريدة «حجاز»، ولكن القائمين على أمرها أصدروا نسخة تركية أسموها «شمس حقيقت»، وقد انتهجب هذه النسخة السياسة الصحفية التي اتبعتها النسخة العربية «شمس الحقيقة».

وبما أن النشاط الصحفي الذي أخذت تمارسة جمعية الاتحاد والترقي قد أثار حفيظة الشريف حسين وبعض الأهالي في جدة، فقد قام عدد من تجار جدة وأعيانها الذين كان يساندهم الشريف حسين بإصدار جريدة «الإصلاح الحجازي» الأسبوعية في ١٧ ــ ٥ ــ ١٩٠٩. وقد اختاروا لها مديراً من سوريا هو راغب مصطفى توكل ومحرراً من لبنان هو أديب هراري. ومن الطبيعي أن تختلف هذه الصحيفة العربية عن جريدتي «حجاز» و «شمس الحقيقة» من حيث

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أسلوب التحرير الصحفي، إذ كانت تحرر بأسلوب أدبي واضح جزل لم يَشُبه شيء من آثار العجمة والغموض التي حفلت بها صفحات «حجاز» و «شمس الحقيقة».

وقد أخذت جريدة «الإصلاح الحجازي» منذ البدء تتراشق السهام الصحفية مع جريدة «شمس الحقيقة»، وصارت تدافع عن الشريف حسين وتهاجم خصومه. ويبدو أن مديرها ومحررها كانا يكتبان معظم ما كان ينشر فيها، أما الأقلام المحلية فما كان لها من وجود في أعمدتها.

ورغم أن جريدتي «شمس الحقيقة» و «الإصلاح الحجازي» كانتا مرتبطتين بهيئات تمدهما بالمال، إلا أنهما لم تستطيعا أن تعيشا أكثر من بضعة أشهر، فقد احتجبتا عن الصدور وانقطع بهذا أثرهما الصحفي.

لقد كانت هذه الجرائد أهم الصحف التي صدرت عقب إعلان الدستور العثماني، وقد ظهرت إلى جانبها ثلاث جرائد صغيرة كانت تطبع على الجلاتين هي: «صفا الحجاز» و «الرقيب» و «المدينة المنورة». ولم تكن لهذه الصحف الثلاث قيمة كبيرة في تاريخ الصحافة في الأماكن المقدسة، كما أنها لم تعش إلا أياماً معدودات.

ويتبين من هذا أن سنة ١٩٠٨ تعتبر بداية حقبة جديدة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

في تاريخ الحركة الفكرية بالأماكن المقدسة، إذ صدرت فيها ست صحف في الفترة ما بين عام ١٩٠٨ وعام ١٩٠٩، وإذ وفدت إلى البلاد جرائد عربية أخرى مما كان يصدر خارج ولاية الحجاز.

ويبدو أن جمهور القرّاء في الولاية قد تعرّضوا حينئذ لتأثير فكري جديد أحدثه اطّلاعهم على عدد من الصحف المحلية والخارجية التي كانت تمثّل مصالح متنوعة، وتعبّر بصراحة عن وجهات نظر مختلفة.

وقد يعجب المرء من ظهور ست صحف بولاية الحجاز في أقل من عامين، ولكن عجبه سيزول إذا ما أدرك أن بعض هذه الصحف لم تعش سوى بضعة أشهر، وأن واحدة منها لم تدم أكثر من أسبوعين. ومهما يكن فإن أثر هذه المنشآت الصحفية لم ينقطع بانقطاع صدور صحفها، ذلك لأن مطابعها التي كانت تنتقل من يد إلى يد لم تتعطل عن العمل، بل ظلّت تؤدي وظيفتها المهمة في حياة البلاد الثقافية.

ولقد كان أثر هذه الجرائد في تاريخ الصحافة المحلية محدوداً، ذلك لأنها لم تكن ميداناً يمد شباب هذه البلاد بالخبرة الصحفية، ولم تصبح مجالاً تتبارى فيه الأقلام العربية، بل كانت ــ ولا سيما الجرائد الرئيسة ــ تحرّر بأسلوب أعجمي ينفر منه ذوق العربي، وتأباه سليقته، ولذلك اقتصر الاسهام

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

في هذه الجرائد على محرّريها الذين رحلوا عن هذه الديار بعد انقطاع جرائدهم عن الصدور.

□ الصحف التي صدرت بين عام ١٩١٦ وعام ١٩٢٤:

يبدو أنه لم يبق من الصحف في ولاية الحجاز عند قيام الحرب العالمية الأولى سوى جريدة واحدة هي الجريدة الرسمية «حجاز» التي لم تصدر بعد ١٠ ـ ٧ ـ ١٩١٦ حين قضى الشريف حسين على الحكم التركي بمكة المكرّمة. ولكن بعد خمسة أسابيع من هذا التاريخ صدرت جريدة «القبلة» أولى صحف العهد الهاشمي بالحجاز. وهكذا فإن الظروف السياسية التي أودت بجريدة حجاز قد أوجدت وسائل دعاية سياسية أخرى، فصدرت بالأماكن المقدّسة في الفترة من عام ١٩١٦ حتى عام ١٩٢٤ أربع جرائد هي: «القبلة» و«الحجاز» و«الفلاح» و«بريد الحجاز».

□ جريدة القبلة:

وقد صدرت جريدة «القبلة» بمكة المكرمة في ١٥ ـ ٨ ـ ١٩١٦، وكانت تصدر مرتين في الأسبوع. ولم تبين الجريدة في افتتاحية عددها الأول المبادىء التي ستسير عليها، ولكنها أكّدت في هذا العدد بأنها ستجنّد نفسها لشرح قضية الشريف حسين في صراعه مع جمعية الاتحاد والترقي

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

التي كانت تسيطر حينئذ على الحكم في الدولة العثمانية.

ورغم أن جريدة «القبلة» قد نفت بأنها جريدة رسمية أو لسان لحال الحكومة الهاشمية[1]، فقد كانت صلتها بالشريف حسين وحكومته قوية، ذلك لأنها كانت تطبع في المطبعة الحكومية التي كان يشرف عليها مدير الجريدة، وكانت تتّبع أي سياسة يتبنّاها الشريف حسين حتى ليبدو أن ما فيها من آراء لم يكن يعبّر عن وجهة نظر رئيس تحريرها بقدر ما كان يصوّر وجهة نظر الشريف حسين. وقد قيل بأن الحسين نفسه قد كتب بعض ما نشر فيها من مقالات غير موقّعة[2].

ويشعر القارىء في الحقيقة بأن جريدة «القبلة» لم تكن سوى مرآة تعكس نشاط الحسين السياسي منذ عام ١٩١٦، وأن سلسلة القضايا التي خصصت لها صفحاتها كانت متفقة من حيث الزمن والاتجاه مع مراحل هذا النشاط ومظاهره. ولذلك فإنها لم تكن بالنسبة للشريف حسين مجرد وسيلة من وسائل الدعاية السياسية، بل كانت مرآة تعكس مشاعره الخاصة، وتصوّر تفاعله مع الأحداث الجارية. ولقد كانت

(١) انظر جريدة القبلة، عدد ٣١٨ في ٢٩ ـ ٩ ـ ١٩١٩، وعدد ٥٠٢ في ٢١ ـ ٧ ـ ١٩٢١.

(٢) خير الدين الزركلي، ما رأيت وما سمعت، ص ١٣٥، القاهرة ١٩٢٣.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

جريدة «القبلة» ذات صبغة ذاتية قوية، ولكن الذي لوّنها بهذا اللون الذاتي لم يكن رئيس تحريرها، بل كان راعيها الحسين ابن علي.

وقد حظيت جريدة «القبلة» بإسهام عدد من حملة الأقلام المشهورين في دنيا الصحافة العربية مثل محب الدين الخطيب وأحمد شاكر الكرمي، فقد أسهم هذان الكاتبان في تحرير أعدادها الأولى ولكنهما ما لبثا أن تركا العمل فيها. وقد شارك الشاعر فؤاد الخطيب كذلك في تحريرها وكتب عدداً من افتتاحياتها ولا سيما إبان نشأتها.

كانت جريدة «القبلة» أشبه ما تكون بالجريدة الحزبية، ولذلك فقد كان معظم ما نُشر فيها عبارة عن مقالات جدلية وتعليقات سياسية لم تكن تلتزم دائمًا بالموضوعية. وفي سنتها الأولى كان فؤاد الخطيب ومحب الدين الخطيب غالباً ما يحرّران مقالاتها الافتتاحية، ولكن هذه الافتتاحيات قد أصبحت فيما بعد غير موقّعة. وكانت افتتاحيات فؤاد الخطيب ــ الذي كان مسؤولاً عن الشؤون الخارجية في الحكومة الهاشمية، والذي لم تذكر جريدة «القبلة» قط بأنه كان محرراً رسمياً فيها ــ تتميز بأسلوبها الخطابي الأدبي، أما مقالات محب الدين الخطيب فيبدو أنها كانت أقرب إلى طريقة التحرير الصحفي الحديث، إذ كان أسلوبها أقل تأنقاً، وكان مضمونها أقرب إلى طبيعة عرض الأحداث السياسية الجارية والتعليق

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

عليها. وفي السنوات الأخيرة غلبت هذه الطريقة على أسلوب تحرير الافتتاحيات.

أما الأخبار التي كانت توجد في العادة مفرّقة ما بين أعمدة الصفحات الثانية والثالثة والرابعة، فتتلو الافتتاحيات في الأهمية، وكانت هذه الأخبار تتلوّن ـ أحياناً ـ بآراء الجريدة المختلفة، وتستغل لخدمة أغراضها الدعائية. ولم تكن «القبلة» تنشر شيئاً من الأخبار والأحداث المثيرة، بل كانت تتّسم دوماً بالجد والرزانة، ولم تكن تلجأ إلى النقد الحاد واللهجة القاسية إلا في مجال الخصومة السياسية.

وكانت جريدة «القبلة» تحرّر تحريراً جيداً، ولكن كتّابها ـ الذين يبدو أنهم لم يكونوا شاعرين بما تدعو إليه نظريات التحرير الصحفي الحديث من إيجاز وسهولة في التعبير ـ كانوا يميلون إلى الإطناب وإلى جزالة الأسلوب العربي العريق، ولذلك فقد كانت المقالات التي نُشرت فيها تتّسم بهذه الجزالة، وتتميز باستخدام طرق التعبير الأدبية.

وكانت جريدة «القبلة» تصدر في أربع صفحات كبار اتّسمت ببساطة المظهر والترتيب، وربما كان لضعف وسائلها الطباعية دخل في خلو صفحاتها من تلك المظاهر الصحفية الحديثة كالتحقيقات والصور والمقابلات الصحفية، ولقد حاولت جريدة «القبلة» اجتذاب المعلنين إليها، ولكن ما نشر

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

فيها من إعلانات تجارية كان قليلاً جداً. ومهما يكن فإنه يبدو أن الجريدة لم تعان من المصاعب المالية وذلك بسبب رعاية الشريف حسين لها، ولكن يظهر أن دخلها من الإعلانات كان يقل كثيراً عن دخلها من التوزيع الذي بلغ خمسة آلاف نسخة في عام ١٩١٩[١].

وتعتبر جريدة «القبلة» ـ التي احتجبت عن الصدور في ٢٥ ـ ٩ ـ ١٩٢٤ بعد أن صدرت مدة تزيد عن ثماني سنوات ـ من أهم الصحف التي ظهرت في الأماكن المقدسة إبان الفترة الهاشمية، وأشدها تأثيراً في الحياة الثقافية والاجتماعية في البلاد، إنها سجل للحياة الفكرية والسياسية التي عاشها الحجاز في تلك الحقبة. ولقد حققت جريدة «القبلة» من النجاح في الميدان الصحفي ما لم تحققه أي صحيفة أخرى من صحف الهاشميين والعثمانيين، كما أن إسهامها في تطوير الصحافة في هذه البلاد كان أكثر مما أسهمت به جريدة «حجاز» أو أي صحيفة أخرى من صحف الفترة السابقة.

الصحف الأخرى:

عندما قام الشريف حسين ضد الأتراك في عام ١٩١٦ استطاع أن يستولي على معظم أجزاء ولاية الحجاز، ولكن

---

(١) انظر جريدة القبلة عدد ٣٣٩ في ١١ ـ ١٢ ـ ١٩١٩.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المدينة المنوّرة بقيت في أيدي الأتراك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد ظهرت هناك جريدة «الحجاز» في ٧ ـ ١٠ ـ ١٩١٦ وهي جريدة سياسية أدبية اقتصادية اجتماعية، وقد صدرت في بادىء الأمر ثلاث مرات في الأسبوع، ثم صدرت خمس مرات في الأسبوع، ثم أصبحت يومية. وكانت تتألف من أربع صفحات صغار أنقصت فيما بعد صفحتين.

وكان حمزة غوث هو المدير المسؤول في جريدة «الحجاز»، ولكن يبدو أن شؤون التحرير كانت منوطة بالصحفي السوري بدر الدين النعساني الذي كان يكتب المقالات الافتتاحية.

ولم يصرح بأن جريدة «الحجاز» جريدة رسمية، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت على صلة وثيقة بالسلطة التركية في المدينة المنوّرة، تلك السلطة التي جنّدت الجريدة نفسها للدعاية لقضيتها والدفاع عن موقفها السياسي والعسكري.

ورغم ما ادّعته جريدة «الحجاز» من اهتمام بميادين السياسة والأدب والاقتصاد والاجتماع، فإن الدعاية السياسية ـ كما يبدو من الأعداد الموجودة منها ـ قد حظيت بأكبر قدر من اهتمامها. فمواد جريدة «الحجاز» تتكوّن ـ في العادة ـ من مقالات وأخبار تهدف إلى الإشادة بأعمال القوات التركية

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وحلفائها ومهاجمة الحلفاء الغربيين والشريف حسين. وكانت الجريدة مهتمة بالقضايا العثمانية وقضية الحرب الدائرة في الجبهة الأوروبية أكثر من اهتمامها بمعالجة الأحداث المحلية. وبما أن جريدة «الحجاز» كانت ذات موضوع واحد، وأنها كانت مجنّدة للدعاية السياسية وخدمة القوات التركية المحاصرة في المدينة، فإنه لم يكن فيها سوى القليل مما يمكن أن يحظى باهتمام القارىء المدني العادي، ولولا ذلك الأسلوب المشرق البليغ الذي كان يكتب به محرّرها بدر الدين النعساني لكانت موادها أقل إمتاعاً.

وكانت جريدة «الحجاز» مناوئة لجريدة «القبلة» ولكن جريدتي «الفلاح» و«بريد الحجاز» اللتين صدرتا بمكة وجدة حينئذ، كانتا شبيهتين بجريدة «القبلة» من حيث السياسة الصحفية. أما جريدة «الفلاح» فقد أصدرها الصحفي السوري عمر شاكر بمكة المكرمة في عام ١٩٢٠ وذلك بعد أن فرّ من سوريا على إثر احتلال الفرنسيين لها، وكان ــ كما يبدو ــ يحرّر معظم مواد جريدته. أما جريدة «بريد الحجاز» التي صدرت في مدينة جدة سنة ١٩٢٤ والتي عاشت قرابة عام فقد كانت شبيهة بجريدة «القبلة» من حيث كونها قد سخّرت لخدمة الأغراض الدعائية.

وبعد هذا، فإن من الملاحظ أن الصحف التي صدرت في الفترة من عام ١٩١٦ حتى عام ١٩٢٤ إنما تمثّل مظهراً من

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مظاهر التطور في صحافة الأماكن المقدسة، فقد توافر لها من الكفاءة في التحرير ما جعلها تمتاز على صحف العثمانيين بوضوح الفكرة وجمال الأسلوب. فلقد تطوّرت الصحافة في هذه الفترة من حيث شكلها ومضمونها، واتّسمت أساليب تحريرها بالوضوح والجزالة، ولكنها تشبه صحف العثمانيين في أن موضوع الدعاية السياسية قد استحوذ على أكبر قدر من صفحاتها. وبما أن الصحف الهاشمية قد ظهرت في ظروف سياسية حساسة، وأنها كانت ذات صلات رسمية قوية، فقد غلبت الصبغة الرسمية عليها، وقلّلت هذه الأحداث من فرصة إسهامها في ميادين أخرى غير ميدان الدعاية السياسية.

ولقد كان إسهام الكتّاب المحليين في الصحف الهاشمية قليلاً إذا ما قورن بما أسهم به زملاؤهم العرب المهاجرون. ولذلك فإن الصحف الهاشمية تشبه صحف العثمانيين من حيث أنها لم تكن ميداناً تتمرّس فيه أقلام أبناء البلاد. وصحيح أن إنتاج الكتّاب والصحفيين الوافدين ولا سيما فؤاد الخطيب كان عاملاً من العوامل التي أثّرت في الكتّاب الناشئين، وأوحت إليهم أن يتعلقوا بالصحافة والأدب، ولكن الباحث سيعجب حين يدرك أن هذه البداية الصحفية التي استمرت ستة عشر عاماً منذ سنة ١٩٠٨ لم تخرج من أبناء هذه البلاد صحفياً واحداً يمكن أن يعتد بخبرته الصحفية، أو يعد من حملة الأقلام الجديدة.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المرحلة الثانية

لقد كانت السنوات الست عشرة التي سبقت توحيد المملكة العربية السعودية تعتبر الطور الأول من أطوار الصحافة في هذه البلاد، ولكن النشأة الحقيقية للصحافة السعودية قد بدأت في أواخر سنة ١٩٢٤ حين أنشئت صحيفة «أم القرى»، ذلك لأن صدور هذه الصحيفة قد آذن ببدء عهد جديد للصحافة المحلية اتّسم بالاستمرار والاستقرار وقام فيه أبناء البلاد بالدور الأكبر في ميدان العمل الصحفي. وقد صدرت إلى جانب هذه الصحيفة صحيفتان أخريان هما «صوت الحجاز» و«المدينة المنوّرة»، وثلاث مجلات هي «الإصلاح» و«المنهل» و«النداء الإسلامي».

□ جريدة أم القرى:

وقد أصدرت الحكومة السعودية جريدة «أم القرى» بمكة المكرمة في ١٢ ـ ١٢ ـ ١٩٢٤، وهي صحيفة أسبوعية رسمية. وكانت الصبغة الرسمية لجريدة «أم القرى» واضحة في سنواتها الأولى، ولكن هذه الصبغة أخذت تقل في أوائل العقد الرابع من هذا القرن، وقد بدت الصحيفة حينئذ ـ ولا سيما حين تولى محمد سعيد عبد المقصود وعبد القدوس الأنصاري الإشراف على تحريرها ـ كما لو كانت جريدة غير رسمية، ذلك لأن صفحاتها قد حفلت بالمقالات الأدبية

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

والتاريخية والاجتماعية التي كان يكتبها محرروها وبعض الأدباء البارزين مثل محمد حسن كتبي وأحمد السباعي.

كانت جريدة «أم القرى» تصدر في أول أمرها في أربع صفحات، ولكن عدد صفحاتها قد تضاعف في عام ١٩٣٦ فصدرت في ثماني صفحات. وقد مكّنها ذلك من أن توسّع في مجالها الصحفي، وأن تعالج قدراً كبيراً من الموضوعات. وقد بُوّبت حينئذ تبويباً أنيقاً، واهتمت بالأخبار وخصّتها بعدة صفحات، فهذه صفحة للأخبار الداخلية، وأخرى للأخبار الشرقية، وثالثة للأخبار العامة، واهتمت كذلك بالمقالات الأدبية وخصّتها بأكثر من صفحة من صفحاتها. ولأن جريدة «أم القرى» قد صارت آنذاك شبيهة بجريدة «صوت الحجاز» من حيث الاهتمام بالقضايا الأدبية، فإنها لم تلبث أن أصيبت بمثل ما أصيبت به هذه الصحيفة فأصبحت ميداناً لمعارك نقدية حامية.

وقد ظلّت جريدة «أم القرى» في اتّباع هذا النهج الصحفي، ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية أثّر فيها وحدّ من طموحها، إذ أن صفحاتها قد أنقصت في أوائل عام ١٩٤١ إلى أربع صفحات، وفي ٨ أغسطس ١٩٤١ صغر حجم هذه الصفحات، وصارت الجريدة مجرد نشرة رسمية لا تحوي سوى الإعلانات الحكومية وبعض الأخبار المحلية والخارجية. ولقد قدّر لجريدة «أم القرى» أن تصبح الصحيفة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الوحيدة في المملكة العربية السعودية طوال ما بقي من فترة الحرب، ذلك لأن أزمة الورق التي تعرّضت لها البلاد آنذاك قد قضت على الصحف والمجلات الأخرى أن تحتجب وألّا تعود إلى الصدور إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

وما زالت تصدر جريدة «أم القرى»، ولكنها قد تخلّت الآن عن معالجة الموضوعات الصحفية العامة، واهتمت بنشر الإعلانات الرسمية والأخبار الإدارية. ومهما يكن فإنه لا بد لمؤرخ الحياة الفكرية في هذه البلاد من أن يشير إلى ما قامت به هذه الجريدة في ميداني الصحافة والأدب خلال العقدين الثالث والرابع من هذا القرن.

□ جريدة صوت الحجاز:

وظهرت بمكة المكرمة جريدة أخرى هي جريدة «صوت الحجاز»، وقد صدرت في ٤ ـ ٤ ـ ١٩٣٢، وكانت في أول أمرها أسبوعية ثم صارت تصدر مرتين في الأسبوع. وتعتبر هذه الجريدة من أهم العوامل في إنعاش الحركة الأدبية التي بدأت في آخر العقد الثالث من هذا القرن على أيدي الكتّاب الناشئين. وفي الحقيقة أن ظهورها يعتبر من أبرز المعالم في تاريخ الأدب الحديث بهذه البلاد، ذلك لأنها أصبحت لساناً لحال كثير من الكتّاب في العقد الرابع وأوائل العقد الخامس من هذا القرن، وميداناً لعدد من المعارك الأدبية التي شهدها

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

هذا الأدب في تلك الفترة.

وبما أن جريدة «صوت الحجاز» كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على ما يسهم به الأدباء من مقالات، فقد كانت شخصيتها في السنوات الأولى غير واضحة المعالم والسمات، إذ لم تكن سوى وسيلة لنشر ما يجود به الكتّاب من إنتاج كان يختلف في اتجاهه ومستواه. وقد أدّى اعتماد الصحيفة على مساهمة الأدباء، وتماديها في نشر إنتاج الناشئة إلى أن تصبح ميداناً للمعارك الكلامية، ومجالاً للخصومات النقدية.

ولقد أدرك المحرر حقيقة ما وصلت إليه جريدته فحاول أن يحد من هذا التيار النقدي وأن ينقذ الصحيفة مما صارت إليه. ولكن لم يرض فريق من الأدباء ممن كانت الجريدة تعتمد عليهم بما أقدم عليه المحرر من تحديد لمجال النقد فكفوا عن الكتابة فيها، وقد أثر ذلك في الصحيفة، وحرمها من كثير من المقالات التي كانت تحفل بها أعمدتها. ولكن ملكية الجريدة التي كانت فردية في نشأتها ما لبثت أن انتقلت إلى شركة أهلية للطباعة والنشر.

وقد ظلت جريدة «صوت الحجاز» محتفظة بعد هذا بشخصيتها الأدبية، ولكن من الواضح أنها قد تأثرت تأثراً كبيراً بما حدث من تغير في ملكيتها وإدارتها، فقد كانت في سنواتها الثلاث الأولى حريصة على تشجيع الكتاب الناشئين

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ونشر إنتاجهم، ولكنها بدت بعد انتقال ملكيتها إلى تلك الشركة أكثر نضجاً في نظرتها إلى الأدب، وأشد حرصاً على اختيار ما ينشر فيها، وأقل اهتماماً بأمر الكتاب الناشئين.

ورغم أن جريدة «صوت الحجاز» كانت شبيهة بالمجلات الأدبية، إلا أنها لم تهمل الموضوعات الصحفية الأخرى إهمالاً تاماً، فقد كانت تنشر مواد أخرى غير أدبية، ولكن معالجة هذه الموضوعات كانت متأثرة بالروح الأدبية والأسلوب الحماسي. وبما أن هذه الصحيفة كانت ذات مجال محدود، وأنها إنما كانت تخاطب رجال الأدب، فإنها لم تكن منتشرة خارج محيط الأدباء والمثقفين. وكان من نتائج ذلك أن عانت من المصاعب المالية، ولكنها استمرت في الصدور رغم هذه المصاعب، وذلك لأن ناشريها ومحرريها لم يجعلوها عملاً تجارياً، بل كانوا يعتبرونها عملاً تثقيفياً إصلاحياً.

وقد توالى على تحرير «صوت الحجاز» عدد من الأدباء هم: عبد الوهاب آشي ومحمد حسن فقي ومحمد حسن عواد ومحمد علي رضا وأحمد السباعي وفؤاد شاكر وحسين عرب ومحمد سعيد العامودي ومحمد حسن كتبي وحسين خزندار وعبد الله عريف وأحمد خليفة النبهاني وأحمد قنديل ومحمد علي مغربي وأحمد إبراهيم الغزاوي، ويبدو أن من أسباب تتابع هذا العدد من المحررين على الإشراف عليها هو أن الجريدة قد اعتمدت إلى حد كبير على المحررين المتطوعين، وأنها

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

كانت قد مرت إلى جانب ذلك بأطوار متغيرة في سياستها، وتجارب عديدة خلال السنوات التسع التي عاشتها.

ولم تحقق جريدة «صوت الحجاز» تطوراً مهمًا في ميدان الفن الصحفي من الناحية الشكلية، فهي تشبه جريدتي «القبلة» و «أم القرى» من حيث بساطة الإخراج الصحفي، وعدم الاهتمام بالوسائل الصحفية الحديثة، ولكن قيمتها تكمن فيما حوته مقالاتها من مادة فكرية جادة، وفيما عالجته من موضوعات ثقافية متنوعة. لقد كانت صفحاتها منبراً فكرياً لمعظم الأدباء والمثقفين المحليين الذين أحسوا حينئذ بأن من واجبهم أن يبثوا بواسطته إنتاجهم، وأن يتخذوه وسيلة لتثقيف مواطنيهم، ولهذا فإن «صوت الحجاز» تعتبر سجلاً للحياة الأدبية والفكرية في هذه البلاد خلال العقد الرابع من هذا القرن.

وقد احتجبت هذه الجريدة في عام ١٩٤١، ولكنها عادت إلى الصدور عام ١٩٤٦ باسم جديد هو «البلاد السعودية». وفي بادىء الأمر احتفظت جريدة «البلاد السعودية» بشخصيتها الأدبية القديمة، ولكن هذه الصبغة أخذت تقل رويداً رويداً. وفي عام ١٩٥٣ أصبحت جريدة «البلاد السعودية» جريدة يومية، وبعد ست سنوات من هذا التاريخ اختصر اسمها فصارت تدعى «البلاد». أما الآن فإنه لا يوجد شبه كبير بين هذه الجريدة وبين سابقتها «صوت

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الحجاز»، ذلك لأن «البلاد» قد أصبحت جريدة يومية توجه اهتمامها إلى الأخبار والمواد الصحفية الرائجة.

□ جريدة المدينة المنورة:

ظهرت هذه الجريدة بالمدينة المنورة في ٨ ـ ٤ ـ ١٩٣٧، وقد أصدرها الأخوان عثمان وعلي حافظ، وانضم إليهما في تحريرها عدد من أدباء المدينة. ولم تكن هذه الجريدة مثل صحيفة «صوت الحجاز» في الاهتمام الشديد بالأدب. ولكن تشجيع الحركة الأدبية كان من بين الأهداف التي حرصت الجريدة على إعلانها[1]. ولقد خصت القضايا الأدبية بقدر كبير من أعمدتها، ولكنها لم تصبح نسخة أخرى من جريدة «صوت الحجاز»، ذلك لأنها حاولت أن توسع في مجالها الصحفي وأن تنوع في موضوعاتها، وكانت تولي القضايا الاجتماعية والتاريخية مثلما كانت توليه للموضوعات الأدبية من عناية.

ولقد تعرضت جريدة «المدينة المنورة» منذ البدء لما تعرضت له الصحف السعودية التي صدرت في هذه الفترة من مصاعب مالية، ولكنها استمرت في الصدور لأنها كانت تشعر

---

(١) انظر افتتاحية العدد الأول.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

بأن لها رسالة فكرية تثقيفية كان عليها أن تؤديها[٢]. ولكن أزمة الورق التي تعرضت لها البلاد على أثر اندلاع نار الحرب العالمية الثانية قد حدَّت من طموح الجريدة وأنقصت من حجمها، فصدرت منذ ٦ نوفمبر ١٩٣٩ في صفحتين بدلاً من أربع صفحات. ولم تؤثر الحرب في حجمها فحسب، بل أثرت كذلك في مضمونها، إذ اختفت تلك المقالات والمناقشات الأدبية التي حفلت بها أعمدتها في أيامها الأولى، وانقطع ما كانت تنشره من المحاضرات الثقافية التي تلقى في أندية المدينة المنورة، وصارت عبارة عن نشرة أخبارية صغيرة لم تلبث أن احتجبت في عام ١٩٤١، ولم تعد إلى الصدور إلا في ١٥ سبتمبر ١٩٤٧.

وما زالت جريدة «المدينة المنورة» مستمرة في الصدور، ولكنها أصبحت الآن جريدة يومية تصدر في مدينة جدة. وتعتبر الآن من تلك الصحف التي يكثر انتشارها، ويشتد تأثرها بنظريات الفن الصحفي الحديث ووسائله.

□ مجلة المنهل:

لم تشهد هذه البلاد ظهور المجلات إلا في عام ١٩٢٠ وذلك حين ظهرت مجلة مدرسية زراعية صغيرة لم تلبث أن

---

(١) عثمان حافظ، «قصة الصحافة في ربع قرن»، جريدة المدينة المنورة، عدد ١٤٤٤ في ٢١ ـ ١٢ ـ ١٩٦٣.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

اختفت بعد صدور بضعة أعداد منها. وفي الحقيقة أن الفترة التي تم فيها توحيد المملكة هي الفترة التي شهدت ظهور عدد من المجلات التي قدر لها أن تكون أكثر نضجاً، وأن تعيش حياة أطول مدى، فقد صدرت حينئذ ثلاث مجلات هي «الإصلاح» و «النداء الإسلامي» و «المنهل».

أما مجلة «الإصلاح» التي صدرت في عام **١٩٢٨** ومجلة «النداء الإسلامي» التي صدرت في عام **١٩٣٧** فقد كانتا مجلتين إسلاميتين خصصتا أعمدتهما للقضايا الإسلامية، واهتمتا بمعالجة الموضوعات التي تتصل بحياة المسلمين. ولقد كان لهما دور بارز في تاريخ الصحافة المحلية ذلك لأن موقفهما هذا إنما هو خروج على تلك النزعة الأدبية التي سيطرت على صحف هذه الفترة، وذلك لأنهما قد خصصتا صفحاتهما لجوانب مهمة في حياة البلاد المقدسة لم تعط من قبل ما تستحقه من عناية واهتمام، تلك هي موضوعات الحج وأحوال الشعوب الإسلامية. ولا يعرف تاريخ احتجاب هاتين المجلتين عن الصدور ولكن من المؤكد أنهما لم تصدرا بعد عام **١٩٤١**.

أما المجلة الثالثة مجلة «المنهل» فقد كانت مجلة أدبية شهرية أصدرها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري بالمدينة المنورة في شهر فبراير **١٩٣٧**. وقد حظيت هذه المجلة منذ ظهورها بمؤازرة عدد من كتاب المملكة البارزين الذين أسهموا في الكتابة فيها، وأمدوها بمواد أدبية وتاريخية مهمة.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ولقد أفاد الأنصاري من التجربة التي مرت بها جريدة «صوت الحجاز» من قبل، ولذلك حرص على أن يجنب مجلته مخاطر تلك الخصومات الأدبية التي كادت تعصف بهذه الجريدة، فأعلن منذ البدء بأنه لن يجعل صفحات «المنهل» ميداناً لمثل تلك المعارك الكلامية[1]. وفي الحقيقة أن الأنصاري قد استطاع أن يجعل «المنهل» مجلة محترمة تترفع عن نشر تلك المقالات الجدلية المتحيزة التي كان يميل بعض الأدباء حينئذ إلى كتابتها. ولم تهمل «المنهل» ميدان النقد الأدبي، ولكنها لم تشجع إلا النقد البناء والنقاش الفكري الجاد.

وقد حرصت «المنهل» على نشر ما يتصل بالتراث الأدبي والتاريخي لهذه البلاد، ولكنها لم تضن بالتشجيع على تلك الأنواع الأدبية الجديدة كالقصة القصيرة والشعر الحر. وحرصت كذلك على معالجة القضايا الفكرية كتلك الموضوعات التي كانت تقدمها في استفتاء «المنهل» والتي كان يشترك فيها عدد من الكتاب المشهورين في المملكة.

وكانت مجلة «المنهل » تتألف في سنواتها الثلاث الأولى من أربعين صفحة. وتتسم ببساطة الإخراج الصحفي، وحسن التبويب ووضوحه. ولكن ظروف الحرب وقلة ورق الطباعة قد أصابت «المنهل» بمثل ما أصابت به الصحف

(١) مجلة المنهل، افتتاحية العدد الأول.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المحلية الأخرى، فتضاءل حجمها وصدرت منذ شهر نوفمبر **١٩٣٩** في عشرين صفحة. وكان من نتائج ذلك أن قل عدد المقالات، وفقدت القصة القصيرة قدراً كبيراً مما كانت تحظى به من الصفحات. ولم تلبث «المنهل» بعد هذا سوى سنتين حتى احتجبت ولم تعد إلى الصدور إلا في شهر ديسمبر **١٩٤٥** حيث انتقل مقرها إلى مكة المكرمة. أما الآن فإن مجلة «المنهل» تصدر في مدينة جدة، وما زال عبد القدوس الأنصاري رئيساً لتحريرها. وفي الحقيقة أن الباحث لا يملك إلا أن يقدر صبر الأنصاري وإصراره على إصدار مجلته رغم ما يلقاه في سبيل ذلك من مصاعب ومشقات. وقد فقدت «المنهل» الآن كثيراً من كتابها المتطوعين، ولم تستطع أن تحتفظ بذلك المستوى الأدبي الرفيع الذي كانت تتمتع به إبان نشأتها، وذلك بسبب انشغال كثير من الأدباء والمثقفين بأعمالهم ووظائفهم، وظهور عدد من الصحف اليومية والمجلات المتخصصة التي تمنح الكتاب مرتبات ومكافآت.

□ ختام:

هذه هي مسيرة الصحافة المحلية في نشأتها، ولم نتعرض لبحث مرحلة التطور التي تعيشها هذه الصحافة في الوقت الحاضر، ذلك لأن هذه المرحلة المتطورة التي أعقبت فترة النشأة إنما تحتاج إلى بحث مستقل يلقي الضوء على

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

جوانبها، ويتلمس عناصر النمو في شخصيتها. ولكن من الواضح أن هذه النشأة الرائدة والتجربة الصحفية قد كانت من أهم العوامل في إرساء قواعد الصحافة المحلية المعاصرة التي تعتمد الآن اعتماداً أساسياً على أقلام الصحفيين من أبنائها، وتصور الحياة الحقيقية للمجتمع في بلادها.

ولقد كانت البداية الأولى في الفترة التي سبقت توحيد المملكة بداية متعثرة لم يفد منها أبناء هذه البلاد فائدة ملموسة، ذلك لأنهم لم يُدعوا إلى المشاركة في العمل الصحفي، بل كانوا يتلقون ما يكتب في هذه الصحف، ويقفون منه موقفاً سلبياً، ولكن الاستقرار السياسي الذي تمتعت به هذه البلاد بعد توحيد المملكة في عام ١٩٢٤ قد أوجد جواً ملائمًا لألوان صحفية أخرى غير لون الدعاية السياسية الذي ساد الصحف خلال الفترتين العثمانية والهاشمية، وكان من نتائج هذا الاستقرار أن دعي الكتاب الناشئون إلى أن يسيروا دفة الصحافة في بلادهم، فانصرفوا بأقلامهم الفتية الرائدة ــ التي حرمت من قبل من مزاولة العمل الصحفي طوال ستة عشر عاماً ــ إلى معالجة مختلف الموضوعات الصحفية وتحبير المقالات الأدبية والاجتماعية.

وقد غلبت الصبغة الأدبية على الصحافة المحلية في هذه الفترة حتى لقد وجدت «أم القرى» الجريدة الرسمية نفسها دائرة حينئذ في فلك الأدب. ويبدو أن للصحافة في البلاد

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

العربية الأخرى أثراً في هـذا الاتجاه، فلقـد كانت هـذه الصحافة خلال العقدين الثالث والرابع من هذا القرن مهتمة اهتماماً كبيراً بالأدب، ولذلك فلا بدع إن اتجهت الصحف في هذه البلاد حينئذ هذه الوجهة، إذ أن الكتاب الناشئين الذين تولوا أمر الصحافة في بلادهم خلال العقد الرابع من هذا القرن قد تتلمذوا على أيدي أولئك الكتاب والصحفيين الذين برزوا في مواطن الثقافة العربية الحديثة.

ويختلف الصحفيـون المحـدثـون عن سـابقيهم من صحفيي الفترتين الماضيتين في أن معظمهم كانوا من ناشئة البلاد، ولم يكونوا ممن هـاجر إليها أو انتدب للعمل في صحافتها. وإذا كانت الصحف التي صدرت قبل توحيد البلاد صحفاً إقليمية لا تمثل من شبه الجزيرة العربية سوى مدن الحجاز، فإن الصحف التي صدرت بعد ذلـك كانت أرحب مجـالاً وأكثر شمـولاً من سابقتهـا، إذ كانت هـذه الصحف تمثل البلاد كلها، وإذ أصبح يشارك في الكتابة فيها كتاب وأدباء من جميع أرجاء الوطن ومناطقه. وقد استطاعت الصحف التي ظهرت في المرحلة الثانية من مراحل النشأة أن تشجع مختلف ألوان النشاط الاجتماعي والأدبي والفكري، وأن تصبح صورة صادقة لهذا النشاط الذي حفلت به البلاد في ذلك الحين.

لقـد اتسمت صحف العثمانيـين والهاشميـين بندرة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الأقلام المحلية، ولكن الصحف التي صدرت بعد توحيد البلاد قد حظيت بإسهام عدد كبير من الكتاب والمثقفين. ولقد تخرج في رحابها معظم الأدباء والكتاب الذين ظهروا بعد ذلك في ميدان الحياة الفكرية والأدبية، كما أنها قد أصبحت الأساس الذي شادت عليه الصحف المحلية في الوقت الحاضر بناءها، واستمدت منه تقاليدها وتجاربها.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ملامح التجديد
في أدبنا المعاصر

لقد كانت جزيرة العرب موطناً لذلك الأدب العربي العريق الذي ظلّ أدباء العربية طوال عصورهم يتمثلون تقاليده، ويستوحون إبداعه وعبقريته. ولكن إسهام هذه الجزيرة في الحياة الأدبية للأمة العربية الإسلامية قد أخذ يقل ويتضاءل منذ أن اتّسعت رقعة الدولة العربية في أواخر القرن الثاني للهجرة، حيث تعددت حواضر العالم الإسلامي، ونشأت بيئات أدبية جديدة. ومهما يكن الأمر فإنه ليس بمستبعد أن تعود هذه الجزيرة إلى سابق عهدها، فتسهم إسهاماً أدبياً مبدعاً، ولا سيما أنها قد أخذت الآن بأسباب العلم والحضارة.

كان شأن الأدباء في هذه البلاد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كشأن معاصريهم في البلاد العربية الأخرى من حيث اتّباع التقاليد الأدبية التي استقرت في عصور الضعف الأدبي. ولكن نشأة الصحافة وتأسيس المدارس الحديثة في

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أوائل القرن العشرين قد مهّدا الطريق لظهور حياة أدبية جديدة. فلم يأت عام ١٩٢٥ إلا وقد صار الأدباء الناشئون في البلاد السعودية ينتجون أدباً يتّخذ قوالب الأدب الحديث ويجرّب أشكاله الجديدة.

وستكون الصفحات التالية عبارة عن دراسة موجزة لملامح التجديد في هذا الأدب، وإشارة إلى أبرز اتجاهاته الفكرية وسماته الفنية.

□ في النثر الأدبي:

كانت المقالة أول الأنواع النثرية التي شغف بها الكتّاب بعد توحّد أجزاء المملكة السعودية في أواخر العقد الثالث من هذا القرن. ولقد كان جو الهدوء والاستقرار السياسي الذي تمتعت به هذه البلاد حينئذ من أهم الأسباب التي أنعشت المقالة الصحفية وجعلتها ذات موضوعات متعددة وأساليب متنوعة. فقد أخلى كتّاب النثر التقليدي مكانهم للجيل الجديد من الأدباء الذين بشّر محمد حسن عوّاد بمقدمهم حين سجّل استجابته للحركة الأدبية العربية الجديدة التي قام بها من قبل كتّاب مصر والمهجر، وحاول تطبيق المفاهيم النقدية الحديثة على الأدب في بلاده[1]. وبما أن هذا الجيل من الأدباء

(١) انظر مقدمة ديوانه المخطوط «روح الشعر العربي» الذي ألّفه عام ١٩٢٤ ويوجد في مكتبة مكة المكرمة بمكة بدون رقم. وانظر كذلك كتابه

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

قد نشأ نشأته الأولى ــ إبّان الحرب العالمية الأولى ــ في جو حفل بالجدل والخصام الصحفي، فقد تبينّ أنهم ورثوا شيئاً من هذه الروح عندما قاموا بدعوتهم إلى التجديد الأدبي، والإصلاح الاجتماعي.

ولأن كتّاب المقالة الناشئين قد اعتقدوا بأن لهم في مجتمعهم رسالة تشبه رسالة الروّاد والمصلحين، فقد انصرفوا إلى ميدان الأدب الذي اعتبروا العمل فيه من أهم عوامل البناء الاجتماعي[1]، ولذلك أصبح الإنتاج الأدبي الذي كان قليلاً من قبل، خصباً وفيراً خلال العقدين الثالث والرابع من هذا القرن.

لقد اعتبر هؤلاء الكتّاب حركتهم الأدبية الجديدة معركة فكرية، ولذلك وجدوا في المقالة النقدية سلاحاً ماضياً

«خواطر مصرحة» الذي نشرته المكتبة الحجازية بمكة سنة ١٩٢٦. وانظر بحث الدكتور منصور الحازمي «معالم التجديد في الأدب السعودي بين الحربين العالميتين»، مجلة الدارة، السنة الأولى، العدد الثاني يونيه ١٩٧٥، ص ١٠ ــ ٢٥.

(١) انظر كتاب «أدب الحجاز أو صفحة فكرية من أدب الناشئة الحجازية شعراً ونثراً» جمعه ورتّبه محمد سرور الصبان ونشرته المكتبة الحجازية بمكة سنة ١٩٢٦. وانظر كذلك كتاب «المعرض أو آراء شبان الحجاز في اللغة العربية» جمعه ورتّبه محمد سرور الصبان، المطبعة العربية بمصر ١٩٢٦.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أفادهم في هجومهم على المفاهيم الأدبية والاجتماعية التقليدية. وكان نقدهم شبيهاً بنقد معاصريهم من روّاد الأدب الحديث في مصر والمهجر من حيث أنه كان نقداً لاذعاً وهجوماً شخصياً، ولكن الفرق بينهم هو أن الكتّاب في هذه البلاد نزلوا ميدان معركة كاد يخلو من الخصوم المحاربين، ذلك لأن الأدباء التقليديين تذرّعوا بالحلم والصبر، ولم يصدّوا هذا الهجوم.

ورغم قصر المدة التي خاض فيها الكتّاب الناشئون معركتهم النقدية ضد الأدباء التقليديين، إلا أن المقالة النقدية ظلت مزدهرة، ذلك لأن الكتّاب الناشئين أغرموا بتوجيه اللوم والنقد إلى ما كان ينشره زملاؤهم من إنتاج أدبي، فشغلوا بالخصومات الأدبية التي لم ينشأ معظمها لاختلاف في وجهة النظر الأدبية، بل بسبب الأغراض الشخصية والنزعات الذاتية[1].

ولكن هذه الفوضى الأدبية ما لبثت أن هدأت حين بدأ يحل محلها ــ منذ أواخر الثلاثينات من هذا القرن ــ اتجاه

(١) انظر على سبيل المثال العدد ٨١ (١٩٣٣/١١/١) من جريدة صوت الحجاز وما تلاه من أعداد حيث نقد محمد حسن عوّاد قصة قصيرة نشرها عبد القدوس الأنصاري في هذه الجريدة. وانظر كذلك ما قاله محرّر جريدة صوت الحجاز عن المعارك النقدية في العدد ٩٦ (١٩٣٤/٢/١٩).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

نقدي موضوعي على أيدي كتّاب أصابوا حظاً من النضج الفكري والقدرة الأدبية مثل حمزة شحاته[1] وحسين سرحان[2]. وقد اتّسم هذا النوع من النقد بالرصانة والهدوء، واتّصف بالأسلوب المنطقي والتفكير المحدد. فلم يكن أداة هجوم، بل كان وسيلة لتقويم الآثار الأدبية، وتبيان خصائصها الفنية، وعناصرها الجمالية.

وإذا كان الكتّاب قد شغلوا في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية بالمقالة النقدية، فليس معنى ذلك أنهم أهملوا حينئذ المقالات الأدبية الأخرى، فقد عالجوا المقالة الذاتية الإبداعية والمقالة الاجتماعية، وظهر في هذين المجالين كتّاب بلغوا في الإجادة والأصالة قدراً يضعهم في صف أعلام المقالة في البلاد العربية الأخرى. ومن هؤلاء الكتّاب ــ على سبيل المثال ــ حسين سرحان وأحمد السباعي ومحمد حسن عوّاد وحمد الجاسر وأحمد عبد الغفور عطّار وعبد القدوس الأنصاري وعزيز ضياء.

أما الأدب القصصي فقد تأخر ظهوره في الأدب

---

(١) انظر مثلاً مقالته «بين الجمال والنقد»، جريدة صوت الحجاز عدد ٤٤٩ (١٩٤٠/٢/٢٥) وعدد ٤٥٠ (١٩٤٠/٢/٢٨).

(٢) انظر على سبيل المثال مقالته «صلة الأدب بالحياة» جريدة صوت الحجاز، عدد ١٨١ في ١٩٣٥/١١/٥.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

السعودي، حيث لم تأت المحاولة الأولى في ميدان الفن القصصي الحديث إلا عام ١٩٣٠، وذلك حينما أصدر عبد القدوس الأنصاري روايته القصيرة «التوأمان». وقد شهدت السنوات الخمس عشرة التالية ظهور رواية قصيرة أخرى هي قصة «الانتقام الطبعي» لمحمد نور الجوهري، وصدور عدد كبير من القصص القصيرة. ولذلك فاق ما أسهم به الكتّاب في مجال القصة القصيرة من حيث الكم ما أنتجوه في ميدان الرواية خلال الفترة التي انتهت بنهاية الحرب العالمية الثانية. وربما كان يعود ذلك إلى ما لقيه فن القصة القصيرة من تشجيع ورعاية في ظل الصحافة ولا سيما جريدة صوت الحجاز ومجلة المنهل.

ولعلّ أبرز سمات القصة القصيرة التي أنتجت قبيل الحرب العالمية الثانية هو أن عنصر المضمون قد لقي من اهتمام الكتّاب أكثر مما لقيه الأسلوب القصصي والبناء الفني. فقد كانت لهذه القصص عظات تحاول إيضاحها، أو آراء تريد إثباتها والدفاع عنها. وإذا كان هناك من خلاف فيما بينها فإنما هو في الطريقة الفنية التي عولج بها الموضوع القصصي، فقد جانب التوفيق بعض الكتّاب الذين لم يحذقوا الأسلوب القصصي، ولكن عدداً آخر من الكتّاب مثل محمد علي مغربي ومحمد أمين يحي ومحمد عالم الأفغاني وأحمد رضا حوحو قد أصابوا شيئاً من النجح في قصصهم التي نشروها

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

حينئذ في مجلة المنهل.

وفي الحقيقة أن ما أسهم به كتّاب القصة في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية لا يقارن من حيث الكم والكيف بما أنتجه زملاؤهم المقاليون. فلم يزد ما أنتج في ميدان الرواية حينئذ عن روايتين قصيرتين اتّسمتا بالصبغة التهذيبية التعليمية، أما القصص القصيرة فما كانت قليلة العدد، ولكن معظمها كان شبيهاً بهاتين الروايتين من حيث كونها تهذيبية في غرضها، تجريبية في طبيعتها، كما أنها كانت عبارة عن مختصرات روائية أبرزت في شكل قصص قصيرة. ورغم هذا فإن عدداً من هذه القصص القصيرة قد اتّسم بشيء من النضج من حيث الرؤية الفنية وطريقة المعالجة القصصية.

وقد تميزت الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية بغزارة الإنتاج الأدبي، فقد استمر كتّاب المقالة في نشاطهم، وأصدر كتّاب القصة عدداً من الروايات والقصص القصيرة. أما في مجال المقالة الأدبية فقد ظلّ أعلام الرعيل الأول مثل حسين سرحان وحمزة شحاته ومحمد حسن عوّاد وحمد الجاسر وعبد القدوس الأنصاري وأحمد السباعي وأحمد عبد الغفور عطّار ومحمد حسين زيدان وعزيز ضياء مخلصين لرسالتهم الأدبية. كما برز حينئذ عدد آخر من المقاليين الذين حذقوا فن المقالة الأدبية، وتميّزوا بأصالة الفكر مثل عبد الله عريف وعبد الكريم الجهيمان وعبد العزيز الرفاعي وعبد الله بن

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

خميس وسعد البواردي وغازي القصيبي. وقد ظهر إلى جانب هؤلاء الكتّاب عدد كبير من كتّاب الشباب الذين اتّسمت أساليبهم بالحداثة والميل إلى التجديد، ولكن انصرافهم إلى العمل الصحفي وانشغالهم بالمقالات الصحفية جعل الإجادة في فن المقالة الأدبية من نصيب كتّاب الجيل الأول.

وقد شهدت السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية فيضاً من الأدب القصصي، حيث نشر عدد من الروايات والقصص القصيرة. ولعل أبرز كتّاب القصة في هذه الفترة هما المرحوم حامد دمنهوري والأستاذ إبراهيم الناصر اللذان استطاعا أن يجعلا الرواية في هذه البلاد أشد اتصالاً بالواقع، وأكثر صدقاً في تصوير البيئة، كما أنهما اهتما حين رسم الشخصيات الروائية بإبراز الانفعالات النفسية، وتصوير المواقف الإنسانية[1].

□ في الشعر:

ظلت الألوان الشعرية التي تستوحي تقاليد الشعر العربي في عصوره الأولى وفي عصور ضعف الدولة العربية

(١) يوجد المزيد من التفصيل حول هذا الموضوع في كتاب الدكتور منصور الحازمي «فن القصة في الأدب السعودي الحديث»، ص ٣٥ ــ ٨١، دار العلوم، الرياض ١٩٨١.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مسيطرة على شعر الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن[1]، ولكن هذه البلاد قد بدأت في مطلع القرن العشرين تأخذ بوسائل الحياة الثقافية الجديدة، ولذلك فإنه لم يمض الربع الأول من القرن العشرين إلا وقد بدت فيها دعوة التجديد الشعري قوية واضحة.

وإذا كان إنتاج الأدباء المحدثين في ميدان الفن القصصي أقل من حيث المستوى من آثار زملائهم في بعض البيئات العربية الأخرى، فإن إنتاجهم الشعري لم يكن أقل أصالة وإبداعاً من شعر البلاد العربية الأخرى.

لقد ظهر في هذه البلاد عشرات من الشعراء، ولعل من أبرزهم حمزة شحاته ومحمد حسن فقي وحسين سرحان وحسن عبدالله القرشي وناصر بوحيمد وغازي القصيبي ومحمد العامر الرميح. ولكل واحد من هؤلاء الشعراء منحاه وطريقته في الإبداع الشعري، فقد حفل شعر حمزة شحاته بالأصالة الفكرية، ولكن شيئاً من آثار أسلوبه المقالي قد يتسلل إلى بعض قصائده[2]. أما محمد حسن فقي ــ الذي

(١) انظر عبد الرحيم أبو بكر، «الشعر الحديث في الحجاز»، ص ٨٤ المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٧٧.

(٢) انظر على سبيل المثال قصيدته «ملحمة» التي نشرت في كتاب «الشعراء الثلاثة في الحجاز» جمع وترتيب عبدالسلام طاهر الساسي، ص ٥٠ ــ ٥٤، مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٦٨ هـ.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

اتخّذ الشعر أداة للتعبير عن مشاعره المرهفة ووجدانه المعذب ــ فقد امتزجت في قصائده الفكرة التأملية المتشائمة بالروح الإنسانية القلقة، فأتى شعره بعثاً لفن الشاعر العربي المتأمل أبي العلاء المعري، وإسهاماً في ذلك النوع من الأدب الإنساني المعاصر الذي يتأمل في مصير الإنسان فيتّسم بروح القلق، ويصطبغ بنغمة التشاؤم. ولكن هذا النغم الحزين الذي استمرأه الشاعر محمد حسن فقي قد جعل شِعره يقع أحياناً في الإيغال العاطفي، والتكرار المعنوي[1].

وإذ استأثرت الروح التأملية الحزينة بأكثر ما نظمه محمد حسن فقي، فقد ظلت همومه الإنسانية متجددة لا تنقضي، وأصيب بالقلق إزاء الواقع البشري الأليم، وأخذت نفسه تغرق في أشواقها الصوفية وحنينها إلى المثل الأعلى.

قال في قصيدته «الساري والليل»:

يا ليل ما تجدي الشكاة.. إذا قسوت فكنت صخرا
هذا الظلام متى يذوب.. وقد تكاثف واسبطرا
أأظل أخبط فيه عمري.. ساء هذا العمر عمرا
لم ألق نجمًا فيه يهديني السرى أو ألق بدرا
أفهل أرى الروض الأنيق غداً وأنشق منه عطرا

(١) انظر مثلاً قصيدته «زفرات» في ديوانه «قدر ورجل»، ص ٣٥٥ ــ ٣٥٧، الدار السعودية للنشر، جدة ١٩٦٧.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وأرى الغدير وقد تدفق والغصون تميل سكرى
وأرى البلابل تسكب الألحان في الأرواح خمرا
وأرى الرفاق الغر بعد النأي والزمن الأغرا
ويقول لي الليل الرهيب. . وقد تبدى النور غفرا
أم أنني في السفر سفر الليل ما أنفك سطرا
أسري به كالطيف ينشد في الفيافي السود قبرا
ويـرى الحياة وقد دهته فما يطيق العيش خسرا

* * *

عصـرتني الأيام حتى مـا تطيق اليـوم عصـرا
وغدوت لا حساً نعمت به. . ولا استثمرت فكرا
يا ليل إني قد ألفتك دون هذا الناس طرا
ما عدت أخشى من غياهبك الفواجع وهي تترى
أنا قطعة منها غدوت وصرت أعمق منك غورا
وأنا الذي نوري سيغمر هـذه الآفاق غمـرا
فـأنير لـلأجيـال حـاضـرهـا ومقبلهـا الممـرا
ولـربّ عصفـور يعـود بقسـوة الأيـام نسـرا
ولـربّ مرهـوب يعـود بكـرّة الأيـام ذكـرى
آثـرت رقمًا فـاستحال الـرقم في كفي صفرا
يا ويحه هلّا استحال نحاسه في الكف تبرا
نسي المواجد من رأى في أهلها نسباً وصهرا[1]

(١) المصدر السابق، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ومن الشعراء المبرزين الذين اتخذوا الشعر أداة للتعبير عن تجاربهم الخاصة، وتصوير مواقفهم الحياتية، الشاعر حسين سرحان. ورغم أن ديوانه الأول قد حفل بالقصائد التي تتّسم بالروح المرحة واللمحات الساخرة، إلا أن شعره لم يخل من لحظات تأملية رجع فيها إلى نفسه، وفكر في مسيرة حياته. ومن هذا اللون تلك القصيدة التي أنشأها بعد أن بلغ الخمسين من عمره، ومما قاله فيها:

تطلع للخمسين حتى إذا بدت
معالمها وانجاب عنها حجابها

غدا متعباً والعيش يزهر مثلما
غدا ناصلاً عن ذات ظفر خضابها

وقد كان يرجو بعد خمسين حجة
قراراً لنفس قد أجدّ عذابها

ويأمل من بعد التطوح راحة
ألا أين؟ لا أين استقر ركابها

ألا ربما سيم الفتى شؤم خطة
فأنّ توقيها وكيف احتقابها؟

أخمسون عاماً قد طويت كأنها
منام توشيه الرؤى وكذابها

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وقد برمت نفسي علائل عيشها
فكيف وقد ولّت وأقبل صابها[1]!

وإذا كان الشاعران محمد حسن فقي وحسين سرحان قد عاشا في إطار التقاليد الشعرية للأدب العربي العريق حين صاغا تجاربهما، فإن عدداً آخر من الشعراء قد جربوا الأشكال الشعرية الجديدة، واتخذوا الشعر وسيلة للتعبير عن مواقفهم إزاء الأحداث السياسية والاجتماعية المعاصرة. فقد شغف الشاعران حسن عبد الله القرشي وغازي القصيبي بالشعر الحر ووجداه أداة طيّعة مرنة استخدماها في إبداع شعرهما الذي عالجا في معظمه القضايا الوطنية.

ولم يكتف الشاعر محمد العامر الرميح بالتجديد في الشكل ولكنه أراد أن يجدد في المضمون كذلك، فأتى شعره مزيجاً من الصور الرمزية والخواطر السريالية[2]. وإذا كانت تجربة الرميح قد ظلت غامضة كغموض الرموز اللاشعورية التي استخدمها، فإن تجربة الشاعر ناصر بوحيمد كانت أكثر وضوحاً وتوفيقاً، فلقد استخدم هذا الشاعر شيئاً من الرمز الصوفي، ولكن كان في عبارته الرشيقة المجنحة، وموسيقاه الشعرية العذبة وروحه الشجية ما أضفى على قصائده مسحة

(١) ديوان «أجنحة بلا ريش»، ص ١٣٥، بيروت، بدون تاريخ.

(٢) انظر ديوانه «جدران الصمت ــ شعر رمزي» منشورات مجلة الأديب، بيروت ١٩٧٤.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

من الرونق والبهاء. ومثال ذلك قصيدته «آفاق» التي قال فيها:

ضاقت بنا الآفاق
يا أيها العملاق
في عالم ليس به
حب ولا أشواق
الناس فيه صور
ميتة الأحداق
ليس على وجوههم
بشر ولا إشراق
مات الوجود فيهم
وجفّت الأعماق
فؤادي الخفاق
ضاق به الحس
لم يبق عندي أمل
لم يطوه اليأس
يا أيها العملاق
قد ضحك الرمس
الناس حولي جثث
لموتها عرس
اعبر بنا الآفاق

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

قد ضاقت النفس
أخاف أن يفلت مني
الغد والأمس
دونك هذا معبرا
تضيئه الشمس
فلننطلق على دروبه
ولا نقسو
فالناس فيه عالم
يرعشه الهمس[1]

ولقد تعددت بعد ذلك تجارب الشعراء الناشئين، فجرّبوا مختلف الأشكال الشعرية الجديدة، وجابوا كثيراً من الآفاق الشعرية الحديثة ولكن بعض هذه المحاولات كانت شبيهة بتلك التجارب التي قام بها نفر من الشعراء المعاصرين في البلاد العربية الأخرى من حيث أنها ظلت غريبة عن الذوق العربي العام، يلفها الغموض، وتختلط فيها الرؤى، ويصعب أحياناً على الناقد أن يميّز أصيلها مما هو مجرد تقليد للآثار الشعرية العالمية المعاصرة.

ومهما يكن الأمر فإن أولئك الشعراء الذين واءموا بين

(١) ديوان «قلق»، ص ٨٧ ــ ٩٠، دار الكاتب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الرؤية الشعرية الجديدة والتقاليد العربية العريقة مثل محمد حسن فقي وحسين سرحان وناصر بوحيمد وغازي القصيبي كانوا أكثر توفيقاً من حيث وضوح التجربة الشعرية والقدرة على التفاعل مع قارىء الشعر العربي الذي تأسره العبارة الشعرية الرشيقة، وتخلب لبّه الرؤية الشعرية الواضحة.

ويتبينّ من هذه الدراسة الموجزة أن حركة الأدب الحديث في هذه البلاد قد بدأت متأخرة نوعاً ما عمّا يماثلها من حركات في بعض البلدان العربية الأخرى كمصر والعراق وبلاد الشام، إذ لم تبدأ هذه الحركة إلا في أوائل الثلاثينات من هذا القرن.

وإذا كان الأدباء في هذه البلاد لم يصلوا بعد في مجال الفنون النثرية الحديثة كالقصة والمسرحية إلى مستوى فني يضاهي ذلك المستوى الذي بلغه أعلام الرواية والمسرحية في بعض البيئات العربية الأخرى، فإنهم قد حققوا في ميدان الفنون العربية الأصيلة كالشعر والمقال قدراً طيباً من الإبداع الفني والأصالة الفكرية.

وعندما يتأمل القارىء في مسيرة الأدب الحديث بهذه البلاد، يجد أنها قد اتّسمت بالتطور الدائب والتقدم المستمر. فقد استطاع الأدباء أن يحوّلوا هذا الأدب عن وجهته التقليدية، وأن يصبغوه بصبغة التجديد، بحيث أصبح قادراً

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

على مواكبة تلك النظريات النقدية الحديثة التي تدعو إلى الأصالة الأدبية والإبداع الفني. وقد وفّق الأدباء كذلك في أن ينتجوا إنتاجاً أدبياً قيّمًا، وأن يسهموا في حركة الأدب العربي الحديث بآثار أدبية اتّسمت بطابعهم وعبّرت عن شخصيتهم.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

متى يكتب تاريخ التعليم في بلادنا؟

إذا ما أراد الباحث أن يسجل تاريخ التعليم المعاصر في المملكة فإنه سيجد هذا أمراً ميسوراً، ذلك أن التقارير والإحصاءات التي أصدرتها مديرية المعارف من قبل ثمّ وزارة المعارف فيما بعد كفيلة بأن تمده بكثير من الحقائق والمعلومات. ولكنه حينما يرجع إلى تلك الحقب التي مرت بها البلاد في القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر فإن عمله سيكون أكثر صعوبة، كما أن الصورة ستصبح أمام ناظريه أقل وضوحاً.

لقد شكا المستشرق الهولندي سنوك هرخرونيه حين تحدث عن حياة مكة العلمية من أن تواريخ مكة قلما تحفل بالحديث عن تاريخ الثقافة والتعليم في هذه المدينة. ولا يملك الباحث في تاريخ الحياة الفكرية بالجزيرة العربية إلّا أن يبدي الشكوى نفسها. ذلك لأن هذا الجانب المهم من حياة هذه الجزيرة لم يحظ من المؤرخين إلّا بإشارات موجزة وملاحظات

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

عابرة، ولهذا أصبح على الباحث في تاريخ التعليم بالجزيرة العربية أن ينقب عن هذه الإشارات والمعلومات في كل ما يتصل بحياة الفكر في هذه البلاد من جرائد ومجلات وكتب في التاريخ السياسي والرحلات والأدب والدين وذلك لكي يوجد من هذه المعلومات المفرقة بناء يصور الماضي القريب للحياة الثقافية. وإذا كانت المواد التي يشيد منها الباحث دراسته مشتتة متباينة، فلا عجب إن بدت الدراسات والأبحاث الأولى التي تعالج هذا الموضوع جزئية ناقصة.

لم يكتب تاريخ الثقافة في الجزيرة العربية بعد، ولم ينشر حتى الآن سوى دراسات محدودة تتناول جزءاً أو آخر من أجزاء هذه الجزيرة. إن كتب التاريخ السياسي لهذه البلاد مصدر مهم لمن يريد أن يتلمس أخبار الثقافة المتناثرة هنا وهناك، ولكنها لن تعطي الباحث صورة دقيقة للأحوال العلمية في الجزيرة، كما أن كتب الرّحالة الأوروبيين والعرب تعتبر مصدراً آخر يمكن أن يمدّ الباحث بتلك النظرة الجديدة التي نظر بها هؤلاء الوافدون إلى الحياة الثقافية في هذه البلاد، ولكن يحسن ألا ننسى بأن أكثر هؤلاء الرّحالة لم يُولوا الجانب الثقافي إلاّ قليلاً من اهتمامهم. ولعل المستشرق الهولندي سنوك هرخرونيه ــ الذي أقام في مكة وجدة سنة كاملة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري وزار مكة متنكراً فقضى فيها ستة أشهر كطالب من طلاب العلم ــ خير

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

من عالج النواحي التعليمية في الجزيرة العربية، إذ خصّ التعليم في مكة المكرمة بفصول من كتابه القيّم «مكة في أواخر القرن التاسع عشر». ولم يحاول كتابة تاريخ للتعليم في مكة المكرمة ولكنه سجل ما رآه ــ أثناء إقامته ــ من مظاهر التعليم في حرم مكة وكتاتيبها. لقد اتسمت ملاحظاته بالدقة، واصطبغت نظرته بالتقدير لوسائل التعليم التقليدية، ولا شك في أن من يريد أن يفهم حياة المجتمع المكي في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر سيجد هذا الكتاب من أفضل ما كتب حول هذا الموضوع. والحقيقة أن هذا الكتاب يعتبر حلقة من أهم الحلقات التي سجلت في تاريخ التعليم بالجزيرة العربية.

وإذا كانت كتب التراجم من أبرز المصادر التي تساعد في تصوير الحياة العلمية في فترة من الفترات، فإن مؤرخي هذا الجزء من الجزيرة العربية لم يسجلوا إلّا القليل من تراجم العلماء في هذه الحقبة. وممن أسهم في هذا الميدان بنصيب وافر المرحوم عمر عبد الجبار في كتابه «دروس من ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام»، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام في كتابه «علماء نجد خلال ستة قرون»، والشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ في كتابه «مشاهير علماء نجد» والشيخ محمد بن عثمان القاضي في كتابه «روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

السنين». وقد حفظت هذه المؤلفات سير عدد من العلماء الذين عاشوا في الماضي القريب، والذين كاد الجيل الحاضر ينسى ذكرهم وإسهامهم في حقل العلم والتعليم.

ومع أن الأماكن المقدسة تعتبر أحسن حظاً من سائر أجزاء الجزيرة العربية الأخرى من حيث وجود بعض المصادر التي تتحدث عن تاريخها الثقافي، فإنها ما زالت في حاجة إلى مزيد من جهود الدارسين لكي ينقبوا عما خفي من مصادرها ويبرزوا ما حجب من موادها.

أما الأجزاء الأخرى من بلادنا المترامية الأطراف كالأحساء ونجد وعسير فإن تاريخها العلمي في القرن الثالث عشر يكاد يكون غير معروف لدى الباحثين، ولا شك في أن هناك من المخطوطات والوثائق ما يلقي الضوء على الحركة العلمية في هذه المناطق، ولكن هذه المصادر ستظل مجهولة حتى يُهيأ لها من الباحثين من يعثر عليها، ويجمع ما تفرق منها. صحيح أن باستطاعة المؤرخ أن يعلم أطرافاً من أخبار هذا العالم أو ذاك، ولكنه لا يستطيع أن يدرك الصورة الكلية للحياة العلمية في هذه الأماكن. والحقيقة أن الحياة العلمية في معظم مناطق المملكة العربية السعودية في القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ما زالت مجهولة المعالم غير واضحة السمات.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

لقد بذلت في السنوات الأخيرة جهود مخلصة نحو جمع المصادر والمواد العلمية التي تتصل بتاريخ الثقافة والفكر في المملكة العربية السعودية، فأنشأت وزارة المعارف مكتبة للوثائق التربوية جمعت فيها بعض الكتب المتصلة بتاريخ التعليم، وحوت وثائق كتبها القدامى من رجال التعليم المعاصرين عن ذكرياتهم التعليمية. كما قامت الجامعات بتأسيس أقسام للمخطوطات، وحرصت على اقتناء ما يتصل بتاريخ هذه البلاد من وثائق ومخطوطات. إنها خطوات موفقة في سبيل جمع المواد التاريخية الأولية، ووضعها في متناول الباحثين.

ولكن يخيل إلي أن تسجيل تاريخ التعليم بالجزيرة العربية في القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر تسجيلاً علمياً شاملاً ما زال أمراً بعيد المنال بالنسبة للدارسين، وذلك لسبب بسيط هو أن المواد الأساسية لهذا التأريخ مشتتة مبعثرة. لذا أصبح من الواجب في هذه المرحلة أن تبذل الجهود لجمع هذه المواد جمعاً منظمًا يهدف إلى تدوين كلّ ما يتصل بتاريخ التعليم في أرجاء البلاد. لقد قامت مكتبة الوثائق التربوية في وزارة المعارف بتسجيل معلومات قيمة في هذا الشأن، ولكن معظم هذه المعلومات مما يتصل بالمراكز العلمية والمدارس التي كانت موجودة في المنطقة الغربية. أما المناطق الأخرى فيبدو أن موادها العلمية أقل وجوداً وأصعب اكتشافاً. والحقيقة أن

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

محاولة مكتبة الوثائق في شد الرحال إلى مواطن التعليم الأولى وتسجيل ما لدى المعمرين من رجال التعليم من معلومات وذكريات محاولة جيدة، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى عدد من الباحثين المدربين الذين يستطيعون أن يجلبوا ما ثقل حمله من المخطوطات والمؤلفات والتقارير، وما غلا ثمنه من التسجيلات والملاحظات والمشاهدات، ولن يقوم بمثل هذه المهمة فرد من الأفراد، بل لا بد من أن يوكل أمرها إلى مجموعة من الباحثين.

وإلى جانب وزارة المعارف فإن على الجامعات مسؤولية في خدمة هذا الجانب من حياتنا الفكرية. لقد أولت هذه الجامعات جمع المخطوطات وتصويرها الشيء الكثير من العناية، ولكنها ما زالت أمام تراث مشتت مبعثر يصعب جمعه، ويشق الحصول على ما أوصدت دونه خزانات الكتب الخاصة، وليس هناك من سبيل إلى معرفة هذا المجهول سوى استمرار البحث وقرع الأبواب الموصدة، والاستعانة بالشباب المثقف الذي شغف بحب التراث وكتبه، إذ لا شك في أن كل عام من العمل الدؤوب سيكشف المزيد من المخطوطات والوثائق والمعلومات.

ومما يساعد كذلك في إثراء مكتبتنا التاريخية أن توجه الجامعات بعض طلاب الدراسات العليا إلى الاهتمام بالأبحاث المتصلة بتاريخ التعليم وتشجيعهم على القيام

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

بالدراسات الميدانية. ولكي تكون أبحاث هؤلاء الدارسين سريعة النتاج، متسمة بالشمول، فإنه يحسن أن توضع خطة لهذه الأبحاث تضمن عدم التكرار، وتتلافى ما يمكن أن تتعرض له إحدى المناطق أو بعض الجوانب من إهمال.

إذا تم هذا فإنه لن يُنتظر وقت طويل حتى يكون باستطاعة الباحثين أن يكتبوا تاريخاً شاملاً منظماً للحركة العلمية في الجزيرة العربية، وإذا ما قدر لهذا التاريخ أن يكتب فإنه سيكون خير أساس يبنى عليه تقدير هذه النهضة الفكرية التي نعيشها. أما إذا ترك الأمر على ما هو عليه الآن، فإن السنوات المقبلة لن ترينا سوى أبحاث جزئية ينسج بعضها على منوال بعض، وتتركز حول تلك المناطق التي تكون موادها العلمية أكثر وفرة ويسراً. وصحيح أن الأيام المقبلة ستكشف عن بعض الوثائق والمخطوطات، ولكن السنوات التي تمر مرّ السحاب ستذهب ببعض المعمرين الذين يعتبرون سجلاً حيّاً لبعض جوانب تاريخنا الثقافي، وستذهب هذه السنوات كذلك ببعض المخطوطات والوثائق.

وأحسب بعد هذا أن مشكلة تاريخ التعليم ليست إلاّ جزءاً من تلك القضية التي تعاني بلادنا منها أشد المعاناة، ألا وهي قلة الدراسات التي تعالج حياتنا الفكرية والأدبية معالجة علمية دقيقة. إن قسطاً من اللوم يتجه إلى الدارسين في بلادنا إزاء هذا النقص في مكتبتنا الفكرية. كما أن تشتت

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المواد الأولية لهذه الدراسات وصعوبة الحصول عليها سبب من الأسباب التي أدت إلى تقصير الباحثين في أداء واجبهم. ولقد أصبح من الضروري أن تُنشأ مكتبة وطنية كبرى تكون خزانة تحوي تراثنا الفكري مخطوطه ومطبوعه، وتكون واحة يتفيأ بظلالها أولئك الباحثون الذين أتعبهم المسير، وَأَملَهَّم التنقل في أطراف هذه البلاد الشاسعة.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المحتويات

مقدمة ٥

□ **مقـــالات:**

مسرحية عقارية تبحث عن مؤلف ٩
شجرة العوسج ١٧
الكهل والزمن ١٩
عاصفة الأشباح ٢٣
ابن الصحراء ٣١
كاتب الحي ٣٥
العالم ومحدث النعمة ٤١
لفتة الجيد ٤٣
ليل الصقيع ٥١
حولية ٥٣
المواطن والعصر ٥٧
أحبيب هذا النشء ٥٩
معلم التنمية ٦٥
نظرة المشتغلين بالعلوم التطبيقية إلى اللغة العربية ٦٩
الأسلوب الصحفي ٧٩
اللغة العربية والحداثة ٨٣
حوار أدبي ٨٧

□ **دراســـات:**

مسيرتنا الصحفية خلال نصف قرن ٩٩
ملامح التجديد في أدبنا المعاصر ١٣٣
متى يكتب تاريخ التعليم في بلادنا؟ ١٥١

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المؤلف

- ولد في مدينة عنيزة بالقصيم عام ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م.
- درس الابتدائية والثانوية في عنيزة ومكة المكرمة.
- تخرج في قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة القاهرة عام ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.
- عمل في وزارة المعارف بالرياض مدة عامين، ثم عُيّن معيداً في قسم اللغة العربية بكلية الآداب.
- ابتعث للدراسة العليا في بريطانيا عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م حيث التحق بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن.
- في عام ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م عاد إلى الرياض بعد أن أنهى دراسته.
- في سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م أصبح أستاذاً للأدب الحديث في قسم اللغة العربية بكلية الآداب.
- صدرت له الكتب التالية:

١ ــ التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني، الرياض ١٩٧٣.

٢ ــ النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية، الرياض ١٩٧٥.

٣ ــ نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية، الرياض ١٩٨٢.

٤ ــ كاتب الحي، الرياض ١٩٨٢.

٥ ــ The Rise of Modern Prose in Saudi Arabia, Riyadh 1982

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ